سيقان تعرف وحدها
مواعيد الخروج

سيقان تعرف وحدها مواعيد الخروج

(رواية)

أحمد عبد اللطيف

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/٧٧٨٨

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 541 - 4

سيقان تعرف وحدها مواعيد الخروج

رواية

أحمد عبد اللطيف

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد اللطيف، أحمد

سيقان تعرف وحدها مواعيد الخروج: رواية/ أحمد عبد اللطيف.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٥٤١ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٧٧٨٨ / ٢٠١٩

إلى ماما، لأنها تُبصر ما لا يُرى

"وما نفيق من السُّكر المحيط بنا، إلاّ إذا قيل: هذا الموتُ قد جاء"

(أبو العلاء المعري)

"وبعد أن وضع يده في يدي بوجه بشوش، فهدّأ بذلك من خاطري، دخل بي إلى عالم الأسرار".

(الكوميديا الإلهية، الجحيم)

"فوجدت فيه فرسًا مسرجًا ملجمًا مربوطًا ففككته وركبته وطار بي إلى أن حطني على سطح وأنزلني وضربني بذيله فأتلف عيني وفر مني فنزلت من فوق السطح فوجدت عشرة شباب عورًا".

(الليلة الرابعة عشرة والخامسة عشرة، حكاية الحمّال والصعاليك الثلاثة)

"لا أحد يمكنه التعرف على نفسه مثل الأعمى".

(بورخس: محاضرة عن العمى)

99 - حينئذ سحبتُ المطواة من جيبي الخلفي، ورشقتُ المطواة في عين الرجل اليسرى، فنزفتْ العين اليسرى عيونًا، عيونًا أعرفها (عيونًا أعرفها لأنها عيون ماما وعيون ليلى ورامز وهند) ومن بينها كانت عيني اليسرى ذاتها. كانت عينه اليسرى تنزف عيونًا أعرفها (عيونًا مضيئة، عيونًا لامعة، عيونًا لا تستسلم للجاذبية الأرضية) كانت تتطاير كأنها أسراب طيور كانت محبوسة في قفص وجاءت اللحظة المناسبة للطيران. حينئذ انتبهتُ إلى أن حدقته اليسرى (وكانت مستديرة كأنها عدسة صناعية) لم تكن إلا قفصًا، وأنا، بضربة من السبابة والإبهام، فتحتُ هذا القفص حقيقةً، فتحتُ الباب، ثم رأيتُ من بعيد (من بعيد لكني أراهم كأنهم على بُعد أشبار مني) حشودًا بزي موحد يتجهون نحوي، بالشر يقفز من عيونهم، بالقتلى يقفزون من عيونهم، فشرعتُ أركض وأركض وأركض، وكلما ألتفتُّ ورائي رأيت حشود الزي الموحد يطاردونني (وكنت كأني أتطلع إلى نفسي من فوق السماء، فأراني أركض وأراهم يركضون ورائي). ثم وجدتُ نفسي عند بيتي

(بناية من خمسة طوابق ولها باب حديدي من مصراعين) فتحتُ باب البناية الصغيرة ودخلت. حينها انتبهتُ (كأني في حلم) إلى أنه بيت مهجور، إلى أن السلم مغبّر، إلى أن درجات السلم خالية، خالية من أي حياة إلا من آثار أقدامي ذاتها. وبجهد وصلتُ إلى شقتي، مررت بالصالة وكان التلفزيون لا يزال مفتوحًا ويعرض تاريخ عائلتي، تاريخي. ثم دخلتُ غرفة مكتبة ماما، وفتحت الصندوق الكرتوني. وحينئذ شرعتُ في قراءة كتاب "**ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور**".

1

حينئذ، حرقوا كل مخطوطات الشيخ في ميدان المملكة.

2

وبينما كانوا يجردونه من ثيابه، من كل أجنحته وريشه، من نعليه ومظلته، كان لهيب النار يرتفع كأنه مُسيّر إلى مصير محتوم، وكانت رائحة النار تتسلل إلى أعماقه فيشعر برائحة الذكريات القديمة، كأن الكلمات حين حُرِقتْ غدت خناجر تخترق قلبه، وكان ذلك عتبةً لكل الذكريات التي ستأتي بعد ذلك، كأن ذلك مجرد باب إلى عالم آخر. وحين وقف عاريًا تمامًا، لا يغطي جسده إلا شعر أبيض، وهالة نور إلهية تداري عورته، أطلقوا سهمًا أصاب عين الشيخ اليسرى، وفقأها. ثم سحبوه عاريًا أمام الجمع. مذهولًا كان فلم يدرك بعد أن فخًا نُصِب له، وموهومًا بالأخطاء البشرية ظن أن سوء فهم حدث لكن ليس بوسعه أن يدفعه عن نفسه. موهومًا كان بأن السهم الذي فلت سيصيب آخر، غير أنه أصابه هو، وأن الأخطاء قابلة للتصحيح. كان موهومًا، إذ كان هو المقصود، حتى لو لم يصدق ذلك في

تلك اللحظة، حتى لو لم يصدق ذلك أحد بمن فيهم جلّادوه. حتى لو لم يصدق ذلك السهم نفسه الذي انطلق وأصاب.

3

كل ذلك كان يحدث له بينما يلتزم هو الصمت. كل ذلك كان يحدث له كأنه يحدث لآخر. ربما لذلك كان مذهولًا، كان مذهولًا بنفس قدر ذهول الجمع، الآلاف الذين يراقبونه الآن بنظرة امتنان وحيرة، امتنان أن السهم لم يصب أيًا منهم، وحيرة مَنْ كيف أصابه هو السهم رغم أنه كان في منأى عن التصويب.

– كيف يفعلون ذلك في الشيخ؟

سأل أحدهم، وسادت همهمات بين المتجاورين، سادت عبارات شفقة تتجاور مع عبارات شكر الله على النجاة، على نجاتهم هم، نجاتهم من سيف السلطان، نجاتهم من سهامه. وسادت عبارات تعجب، سادت عبارات استفهام. لكنها كانت مجرد همهمات، مجرد كلمات بأفواه مغلقة، رؤوس تقترب من رؤوس، أفواه تقترب من آذان، ونظرات ممتنة وحائرة. نظرات

لن تلاقيها نظرات من جانبه، من جانب الشيخ، إذ كانت نظراته هائمة، تنظر إلى أفق لا يراه غيره، أفق صُنِع له خصيصًا.

4

من البيت إلى الميدان، كان الشيخ يسير مثل طفل، مثل طفل يتعلم المشي، طفل لا يصدّق حركة القدمين، مثل طفل يسير في طريق للمرة الأولى، كأنه في هذه المرة اكتشف الطريق، شاهده من زاوية أخرى. كل خطوة كانت مترددة، كأنها خطوة فوق شوك، خطوة صوب مجهول مقبض، خطوة نحو حياة جديدة والشيخ لا يحب تغيير طقوسه اليومية، هو عبد عاداته، عبد النظام الكوني الذي وضعه لنفسه. كل خطوة كانت مترددة لأنها كانت فوق ذكرى. خطوة إلى الأمام في الواقع كانت خطوة إلى الوراء في الذاكرة، وفي الذاكرة رأى نفسه طفلًا وشابًا وكهلًا، رأى نفسه يركض نحو الجامع ليتعلّم القرآن، ورأى نفسه شابًا منكفئًا على المحبرة والأوراق، ورأى نفسه كهلًا مرت الأيام من أمام بيته مثل قطيع من الغنم، واحدًا وراء الآخر، من دون أن تلتفت إليه. قضى سنوات في محرابه يدوّن أحداث

الدهر، قضى سنوات تطلّع فيها إلى الحياة عبر لوح زجاجي، كمراقب لحياة لن يشارك فيها أبدًا لكنه مكلف بتسجيلها. والآن يسير بين حراس بالأمس كانوا يحيونه بتبجيل، حراس كانوا إخوة له، كان يحييهم بمحبة، ويضغط على أيديهم بود، حراس كان يبتسم في وجوههم كأنهم أبناء أم واحدة. يسير بين حراس الآن يقبضون عليه كمُتّهم، يحيطون به ليقودوه إلى قِبلة لا يعرفها. هم لا يعرفون تهمته كذلك، لكنهم ينفّذون الأوامر. التهمة سيعرفونها بعد قليل مثل غيرهم من عامة الناس. وعامة الناس كانوا يصطفون في صفوف ودوائر في الميدان الكبير وحوله. والآن، كلما اقترب، كانوا يتتبعونه بنظرات كنهر يصب في بحر، وبحره كان يموج في صمت، تختلط سمكاته الملونة بسمكاته الرمادية، تدخل رؤوس السمكات في الصدف والثغرات، ترتجف ذيولها بينما غدت الرؤوس في مخبأ، والمخبأ كان متعرجًا مثل الذاكرة، ذاكرته هو.

5

حين بلغ ميدان الجامع الكبير، كان أهل المملكة جميعهم هناك. كان أهل المملكة جميعهم، كما لم يحدث من قبل، مجتمعين. حينئذ ساقه الحراس إلى تبّة عالية، سيعرف بعد قليل لماذا هذا المكان تحديدًا، ومن هذا الجانب رأى هالة من الحراس حول السلطان، هالة في التبّة المواجهة له. كل منهما في مواجهة الآخر، كأن كل منهما في تحدٍ للآخر، رغم أن الرمز لم يكن حقيقيًا، فمن يكون الشيخ أمام السلطان، ما يكون الكتاب أمام السيف. الشيخ لم يكن يتحدى أحدًا. الشيخ كان يقرأ ويعرف، الشيخ كان يكتب ما يعرف، الشيخ كان يكتب ليعرف، والسلطان كان يعرف كل شيء، مثل كل السلاطين في كل زمان وأوان، يعرف كل شيء، ومن ضمن ما يعرفه أن الشيخ يعرف، أن الشيخ يغرف من معارفه للآخرين، أن الشيخ يغرف منها وينشرها بين الناس. لكن لا بد أن معارف الشيخ باتت مقلقة للسلطان، ربما

رأى فيها عداءً لسلطانه، فكّر الشيخ في ذلك وافترض افتراضات سريعًا ما كان يقوّضها، إذ لم يكن الشيخ، بعد كل ما عاشه، بعد كل ما قرأه، قد تعلّم كل شيء بعد. أقول افترض الشيخ افتراضات، رغم أنه يعرف أن الوشاة، الوشاة من حاشية السلطان، ومنذ أيام مضت، قد أقنعوا مليكهم بخطورة الشيخ، الشيخ وكُتُب الشيخ. الوشاة أقنعوا السلطان، بينما كان الشيخ منكبًا في محرابه، يصب الحبر على الورق، يصب الحبر من دون أن يفكر في شيء إلا تدوين التاريخ من أجل أهل المملكة، أهل المملكة الذين يقفون الآن في صفوف، في صفوف يبدو فيها أنهم لا يعرفون ما سيحدث، ولكن يخمّنون أن عقابًا ما سيحل بالشيخ. لكن كيف سيصبون عقابًا على الشيخ إن كان من أحباء السلطان، يختلف معه لكنه من أحبائه، الشيخ، يا أخي، هو عين السلطان، هو يد السلطان وساعد السلطان. لكن، يا أخي، لا تنس أن دوام الحال من المحال، وأن للسلطان أحباءً آخرين يحملون في قلوبهم عداوة للشيخ. لكن الشيخ، رغم بصيرته، لا يعرف ماذا سيحدث له بعد دقائق، حتى وإن رأت بصيرته المستقبل القريب، لا بد أن عقله سيكذّب بصيرته، إذ كيف يمكن أن يتنبأ بما سيجري له. والآن يصل الشيخ إلى حيث أراد الحراس، حيث أوقفوه في مكان مرتفع، فوق تبّة تطل على الميدان. ومن مكانه المرتفع، يرى ابنه وزوجته قادمين وسط حراس آخرين، حراس آخرين كانوا أيضًا من أتباعه. الزوجة والابن مقيدان، والشيخ من مكانه المرتفع يتطلع إليهما، عاجزًا عن الدفاع عنهما، عاجزًا عن الدفاع عن نفسه. عاجزًا عن النطق، كأنه نذر للرحمن صومًا.

6

حينئذ حرقوا كل مخطوطات الشيخ في ميدان المملكة.

7

في أقل من ساعة، ظهر من ناحية الشرق مئات الحراس. مئات الجنود. مئات يحملون كتبًا ومخطوطات. مئات يسيرون في صفوف عسكرية من دون أن يرمش لهم جفن. وفي وسط الميدان راكموا الكتب. وفي وسط الميدان راكموا المخطوطات. باتت الكتب والمخطوطات هرمًا، هرمًا ضخمًا من أوراق، أوراق متراصة بعضها فوق بعض كبناية، بناية أكبر من البناية التي اعتادوها. ومن مكانه المرتفع، يتأمل الشيخ أيامه وسنواته تتراص في شكل بناية، في شكل مخروطي، في شكل هرمي. بدأ يعرف ما سيحدث لكنه لا يصدق، بدأ يعرف ولا يعرف. كان يقول لنفسه إن السلاطين يفعلون كل شيء، لكن هذا السلطان لن يفعل ذلك. لقد عاش الشيخ كثيرًا، قرأ كثيرًا، لكنه لم يكن قد تعلم كل شيء بعد. ولا واحد من الواقفين، من أهل المملكة، كان يصدّق ما سيحدث. ولا أحد تخيل، وإن تخيل أحدهم كذّب

حدسه. المشهد كان كالتالي: الشيخ في طرف الميدان الكبير، واقفًا فوق تبّة، محاطًا بحراس. في مواجهته السلطان فوق تبّة محاطًا بحراس، لكن دور الحراس في الجانبين مختلف عن الآخر، كما نعلم. وفي مكان قصي، بعيدًا عن الحشود، كانت زوجة الشيخ وابنه المراهق، المراهق النحيف، المراهق الشارد، كما كان يناديه الشيخ. وبين التبّتين ميدان كبير ودائري، ميدان يحيط به آلاف البشر، يحيط به مئات الحراس، حراس بزي موحد، حراس بأسلحة، حراس مترجلون وحراس فوق جيادهم. وفي وسط ميدان الجامع الكبير تراصت الكتب والمخطوطات. تراصت في شكل هرمي.

8

بإشارة بيد رئيس الحرس، جرّد الحراسُ الشيخَ من ثيابه، أوقفوه عاريًا كما وُلِد، وسط ذهول من جانبه، وسط صمت من جانبه. لم يسأل لماذا يفعلون ما يفعلونه، لم تلتق عيناه بعيونهم، ولا دارى عورته براحتيّ يديه. فكّر الشيخ أن العورة التي يعوزها الستر ليست جسده، بل ما يفكرون فيه، بل ما يفعلونه. ورغم سنه المتقدمة، ورغم حدبة تسللت إلى ظهره في سنواته الأخيرة من دون أن ينتبه إليها، كان منتصبًا، وكان في انتصابه شموخ. ثم بإشارة أخرى من رئيس الحرس، ما يسمونه بـ وزير البطش، رفع أحد الحراس سهمه، وصوّبه إلى عين الشيخ اليسرى. نظر الشيخ إلى السهم وهو يخترقه، لم يشعر بالخوف، لم يرتجف، غير أن حزنًا لم يعرفه طوال حياته اقتحمه في هذه اللحظة. لحظة خروج السهم وإصابة عينه العجوز. عينه شبه المغمضة جرّاء القراءة والسن المتقدمة، جرّاء التدقيق

في كتابة الحروف، والجلوس لساعات في ظلام المحراب. في هذه اللحظة بالذات، رأى نفسه طفلًا يتوه في الشوارع والحارات، رأى نفسه يسقط في قبو عميق، رأى نفسه يخوض رحلة طويلة حتى يصل إلى قاع قبو. وفي الطريق إلى قاع القبو شاهد حراسًا وأقرباء وجيران، سار وهو يتطلع إلى شرفات ونوافذ، يسمع أصواتًا قادمةً من بيوت مغلقة وحارات ضيقة، يودّعه أبوه بعينين زائغتين، وتسقط من أمه دموع في قطرات لا نهائية، دموع تبلغ فمه فتروي عطشه، يمر على جياد ومعارك وسهام، يرى مدنًا مائلة، ومدنًا شديدة الارتفاع، وحصونًا لا بداية لها ولا نهاية. يسمع آهات المتألمين من سهام قضت على حيواتهم القصيرة، يرى الدماء تسيل وتتخثر على أرض المعركة، فلا يزيلها الماء ولا يداريها التراب. ثم يخترق سهم عينه اليسرى. حينئذ يسيل الدم من العين بحورًا، بحورًا تكسو التبّة وتسيل إلى الأرض وتصل إلى أرض ميدان المملكة. حينئذ يسيل الدم ويحيط بهرم الأوراق المحروقة. حينئذ تتسلق الدماء الكتب والمخطوطات وتكسوها. حينئذ تستحيل الأوراق حمراء. حينئذ تنصهر الأحبار بالدماء، كأن الدماء تثبّت كل حرف، كأن الدماء جاءت لتخلد الحروف. كأن الأحبار كانت دماء الشيخ، والدماء حنّت إلى الدماء. وقطرات الدم كانت تعانق أخواتها التي تُرصّع الورق. كأنه لقاء أم وابن. وفوق بحر الدماء كانت عين الشيخ اليسرى، العين المستديرة الرمادية، كانت عين الشيخ اليسرى الرمادية تطفو فوق الدم، تطفو مثل مركب تائه في لجة المحيط.

9

حينئذ حرقوا كل مخطوطات الشيخ في ميدان المملكة.

10

سمع أهل المملكة أصواتًا منبعها تحت الأرض، تحت أرض الميدان نفسه، أصواتًا كأنها تأتي من بعيد غير أنها تتجمّع، كماء تجمّع عند شلال، في الميدان نفسه. ثم شعروا بدبدبة أقدام ترجف الأرض تحت أقدامهم، كأن الأرض تموج، غير أنه لم يكن زلزالًا، ورغم أن ثمة من فكّر أنه غضب من الله، فإنه لم يكن كذلك. سيعرف الشيخ، أول من يعرف، أنه غضب السيقان المدفونة تحت الأرض في أزمنة أخرى، لكنه لم يعرف ذلك الآن، بينما هو على التبّة أو مَسوق إلى مصيره الحتمي. إنما سيعرف ذلك حين يبلغ القبو، ومن هناك سيرى ما لم يكن يُرى. من هناك سيرى قصة السيقان المبتورة، ويستحضر الأسطورة القديمة عنها، وساعتها سيدرك أن الأساطير ليست إلا حقيقة، وأن الحقيقة ينتهي بها المطاف إلى أسطورة.

لنعود إلى اللحظة الآنية، لنتطلع إلى وجوه الناس الشاحبة من الخوف،

لنراقب عينيّ السلطان الزائغتين كأنهما تأمران الحراس بأن يُسكِتوا الأرض، ولنلمح بنظرة خاطفة عينيّ زوجة الشيخ الثابتتين، كقدمين راسختين على أرض حجرية. لنتابع رجلًا مبتسمًا بسخرية لا نعرف من هو، كأن ما حدث كان نبوءته وها هي تتحقق. كأنه يقول ألم أحذركم من المساس بالشيخ، هأنتم الآن تفتحون علينا أبواب الجحيم، فلندخلها جميعًا، فالجحيم مسليةً في رفقة الأهل والأعداء. الأرض ترتجف، ارتجافة تشبه نبضات قلب عاشق، مضطربة لكنها منتظمة وقاطعة. القيامة ستقوم، همس صوت من آخر الصفوف، فالتفت إليه رجال من الصفوف الأولى. سرى الخوف بينهم لدقائق، تجمّد فيها كل شيء، ثم عاد الهدوء كأن شيئًا لم يكن. لكنه الهدوء السابق للكوارث، وليس الهدوء التالي للحظات الاحتضار.

11

قالت السماء: لحظة الموت هي لحظة الاستغناء التام عن العالم.

قالت السماء: وللمفارقة، هي لحظة الحياة الوحيدة، لحظة التحرر.

12

ثم سحبوه من فوق التبّة ونزلوا به. كانت خطواته طافية، كأنه يودّع الأرض. ومن منحدر آخر غير الذي صعد منه، نزل مطرقًا. ظل يسير ويسير، لا يعرف إلى أين. ثم سلّمه الحراس لحراس آخرين، كانوا ثلاثة رجال، اثنان أمسكا بذراعيه اليمنى واليسرى، وثالث تقدم الجميع كدليل. وهو في المنتصف، كان عاريًا إلا من خطيئته، متجردًا إلا من شروده. يفكر في أنها مزحة سخيفة قد تكون، مزحة ستنتهي بضحك الجميع، وضحكه هو نفسه. أو ربما مجرد كابوس سيصحو منه على واقع مستقر وقصر بحديقة وحراس وخدم. لكن لا شيء من ذلك حدث. لم تكن مزحة، لم يكن محض كابوس، رعد السماء وبرقها يشير إلى أنها لم تكن مزحة ولا كابوسًا، سيره عاريًا يؤكد أنها لم تكن مزحة ولا كابوسًا. والعيون المعلقة به، مثل عيون كانت تتعلق بالمسيح يوم الصلب، كانت تؤكد أنها لم تكن مزحة

ولا كابوسًا. وأثناء كل ذلك، كان ابن الشيخ، المراهق الشارد، يتجول بين الصفوف، يبتعد عن أهل المملكة ويقترب منهم، كأنه يبحث عن شيء لا أحد يعرفه إلا هو، أو كأنه يصوّر الموقف بحدقتيه إلى الأبد، ليصنع من المشهد ذكرى، ويصنع من الذكرى خلودًا. ربما تعلّم الولد من أبيه أن الذاكرة خائنة، لكن العيون لا تكذب، حتى لو رأت في الصحراء سرابًا وظنته ماءً، فالسراب على الأقل دليل على وجود شيء حتى لو لم يكن ماءً. لكن ما يراه الآن ليس سرابًا، وذاكرة العين، الآن على الأقل، لا تخيب، فأراد أن يدوّن ما يحدث بعينين مبصرتين، قبل أن يأتي وقت يدرك فيه أن البصر نفسه عمى، وأن المبصرين هم أكثر الناس عماءً. لكنه، بما أنه لا يدرك ذلك الآن، سيستمر في غيه، فربما تحولت ذكريات العينين إلى كتابة، فتكتسب الكتابة بصيرة لا تمنحها إلا الكلمات المكتوبة، إذ للأحرف أسرار لا تُمنح إلا لمن رص بعضها بجانب بعض، وكوّن منها كلمات وعبارات، فتمنحه الحروف المعنى، ويمنحه المعنى إدراك الحياة. من أجل ذلك كان الشيخ يكرّس حياته للكتابة، كتابة التاريخ بالذات، ليس لأن في التاريخ عبرة فحسب، إنما لأن بالكتابة اكتشف ذاته، كمن يتطلع بمصباح إلى قبو مظلم، فكانت نفسه القبو والكتابة مصباحًا. وبالمصباح تجول في الممرات ودخل الحجرات، وحين تطلع من الشرفة، أبصر نفسه مجرورًا بذراعيه، تسير خطواته على أنصال سكاكين حادة، عاريًا كان مثلما ولدته أمه، لا يملك شيئًا إلا كلمات لن يسمعها أحد. تطلّع إلى نفسه فلم يتعرّف عليها في البداية، حدبة الظهر، اعوجاج الساقين، الرأس المطرق كأنه يستعذب

الألم، ألم رشق الأنصال في القدم، والشعر الأشعث فوق وجه ذابل، وجه تغضّن بالعَجَز بين ليلة وضحاها، كأن الشيخوخة كانت تقف على باب فتحته الكارثة، فدخل واستقر وخطط خطوطه. لم يستغرب الشيخ حين أبصر نفسه بهذه الهيئة، كان يدرك أن النضج هو ألا نستغرب، أن نتلقى كل الأخبار السعيدة والتعيسة بقلب ثابت، أن نؤمن بأن الحياة ليست الجنة، وأن السعادة ليست إلا استثناءً، مجرد هدنة بين حربين، غفوة بين يقظتين. يتذكر الشيخ يوم قرر السلطان أن يعينه قاضيًا للمملكة، يتذكر كيف انقبض قلبه، الآن عليه أن يعيش الواقع يومًا بيوم، والآن عليه أن يطيع السلطان كما تطيعه ذراعه، والآن غدا معرضًا للخطأ الذي قد يودي بحياة إنسان. كان من الممكن أن تسير الحياة على وتيرتها الهادئة في ظاهرها، المضطربة بداخله، غير أنه قرر أن يدوّن يوميات المملكة، وكان من اليوميات اختفاء الشباب واحدًا وراء واحد، حتى تجاوز العدد المئات، من دون أن يعرف أحد سببًا لذلك، وإن كانت التكهنات تشير بالسبابة إلى السلطة. تأمل الشيخ الروابط التي تجمع المختفين، فلاحظ أنهم جميعًا في العشرينيات، وأنهم ينتمون إلى عائلات من المزارعين، وأنهم أبدوا اعتراضهم ذات مرة على ارتفاع الجباية.

13

يفكر الشيخ أنه لم يسعَ إلى سلطة أو جاه، لم يدخّر شيئًا للغد، حتى شبابه الذي أفناه في العلم لم يفنه إلا من أجلهم. من أجل هؤلاء الذين يراقبونه بعيون جامدة. ثم بعد ذلك يدرك أن الأسباب التي ظنها عاصمةً له من العقاب كانت هي نفسها أسباب العقاب، أنا والسلطان لم نكن في خندق واحد، وبنظرة متأمّلة فأنا وهو كنا بالضبط في الخندقين المتواجهين. حينئذ هربت دمعة من دليل الحراس كأنه يقرأ أفكاره ذاتها، ويلتفت وراءه وهو ينظر في حسرة إلى حدقة عين الشيخ الفارغة. حينئذ يفكر الشيخ في زوجته، زوجته التي كانت واقفة مقيدة في منأى عن الصفوف، تتطلع إليه كغريبة، أو كواحدة من أهله تستقبل المعزين وتقبل العزاء، زوجته التي كانت تُشيّع جنازته حيًا، بدموع نعم، حتى لا نبدو قاسين، دموع العجز عن التضامن أو دموع قسوة التخلي، لقد حلّ العقاب ومَن بوسعه أن

يقاوم، لقد حلّ العقاب والكل اختار الصمت أو الإطراء على السلطان، أو الاختفاء في الجحور.

يسير، ومن بعيد يلوح ماء، لكن الشيخ يعلم أنه سراب، ما من سراب إلا في الصحراء، يقول وهو يفكر في مدينة تطل على نهر. المدن التي تطل على نهر لا تعرف السراب. يسير، يرى الماء، ويعرف أن العطشان لا يكتشف أنه سراب إلا حين يبلغه. يسير، ويعلم أن العطشان، في المسافة من مكانه وحتى بلوغ السراب، لا يحمل أملًا، إنما وهمًا. وهمًا مثل الذي حمله طوال حياته من دون أن يعرف ذلك.

كان الشيخ يسير حافيًا، وكانت الحصوات، كسيوف مسنونة، تنغرز في باطن قدميه، وتخلّف وراءها ندبات صغيرة. في لحظة، حين تحسس جبهته بيد جافة، انتبه إلى ندبات عميقة هناك، كأن خيطًا سريًا يسير من القدم للجبهة، فتستحيل الجبهة أرضًا للندبات.

14

قالت السماء: سكرات الموت التي يتحدثون عنها ليست إلا ألم اكتشاف الحقيقة، أي حقيقة.

قالت السماء: الابتسامة على شفتيّ الميت ليست إلا السخرية من هذا العالم، طريقة مُثلى لتوديعه.

15

خطوة وراء خطوة، كانت السماء ترعد، وكان ضوء البرق يقترب منه، منه وحده، كأنه تهديد أو إشارة إلهية. كانت السماء تمطر، وكانت قطرات المطر تتزايد كلما ابتعد عن أرض الشجرات والنخلات. كانت السماء تمطر والقطرات تلامس جبينه، فشعر بها يد الله تربت على وجهه، فابتسم، بينما تغوص قدماه في أرض رملية، في أرض قاحلة، في أرض بلا شجرة يتظلل بها، ولا سقف يقيه المطر والبرق. بينما تغوص قدماه في أرض رملية غدت مبللة، أرض رملية احتفظت، لحسن الطالع أو لسوئه، بخطوات قدميه، خطوات كبيرة، خطوات ضخمة، خطوات أبدية، خطوات، لحسن الطالع أو لسوئه، سيمشي فوقها، بعد سنوات طويلة، أناس آخرون، لكن بخطوات أصغر، ولأسباب شبيهة. وفي لحظة، انطلق صوت كزئير الأسد، صوت ملأ الأرض والسماء، صوت أوقف البرق والرعد والمطر، صوتٌ، رغم أنه

قادم من بعيد، قادم من ميدان الجامع الكبير، إلا أنه بلغ أذنيّ الشيخ. كان الصوت، من فوق التبّة العالية، ومن تحت مظلة تقيه الشمس والمطر، يمتدح حارقي الكتب والمخطوطات، حارقي الكتب والمخطوطات الذين غدت أقدامهم حتى الركبتين غارقة في دماء العين اليسرى المُسالة. صوت يمتدح الواقفين في صفوف وفي شكل دائرة حول ميدان الجامع الكبير، يمتدح تآلف قلوبهم واجتماعهم على الحق، اجتماعهم على نجاة المملكة من الشيخ وكتب الشيخ. صوت يصدر أمرًا بانصراف زوجة الشيخ وابنه الوحيد، والحياة في سلام، حتى ينسيا الرجل الذي عاشا تحت سقفه وحمايته.

16

حينئذ حرقوا كل مخطوطات الشيخ في ميدان المملكة.

17

كان الشيخ قد ابتعد عن مركز المملكة، لكنه بات يرى في السماء كل ما يحدث فيها، كأن السماء غدت مرآة لها، كأن حجاب الغيب قد أزالته يد قوية. وحينها، بين فرح وحزن، بين بهجة وخيبة أمل، كان أهل المملكة يشاهدون حريق الكتب. كانت ألسنة اللهب ترتفع في مواجهة المطر، وكانت دماء العين اليسرى تتخثر على أقدامهم. وكانت العين اليسرى ذاتها تتخذ موضعًا بجانب هرم الكتب، وتتطلع إلى الواقفين كما تتطلع إلى الحريق. كانت العين اليسرى، الطافية، تتطلع، خفيةً، إلى زوجة الشيخ الباكية، المحاطة بالدماء كذلك مع ابن الشيخ، بينما تستمع إلى السلطان يمتدح أهل المملكة والحراس، يمتدح ويعد بحياة سالمة وخير كثير، وعودٌ لن ينال منها الشيخ السائر في طريق رملية إلا ما يوازيها من العقاب. انصبت كلمات السلطان كبلسم على جروح القلق، تبادل الواقفون النظرات، ربما منهم

من قال صبرنا ونُلنا، ومنهم من شعر بغصة في الحلق، غصة نطقت بها نظراتهم، نظراتهم المبهمة، شعورًا بالوصول سيرًا على جثة الشيخ. وخزة في الضمير وخزت أحدهم ولم تُخز الآخر، لكن النتيجة مبهرة كما نرى، هم الآن في مأمن، لقد تجاوزوا الفخ ولم يسقطوا فيه، انحنوا أمام الموجة فتجاوزتهم بسلام، وربما قال حارس لآخر لماذا فعلنا ما فعلنا، ورد الآخر على الأول فعلنا لأنه كان يجب أن نفعل. لن تكون الإجابة مقنعة لكنها الإجابة الوحيدة، سيقول الأول ماذا كان بوسعنا أن نفعل إذ أُمِرنا بحرق الكتب، وسيرد على نفسه بأننا فعلنا لأننا كان يجب أن نفعل. والشيخ يراجع المشهد مرة أخرى:

18

المئات يركضون من كل مكان، يصبون كنهر في بحر عند قصر الشيخ. المئات يتدافعون ليفتحوا باب الحديقة. المئات يملؤون الحديقة ويتدافعون يجمعون المخطوطات، الآلاف يساهمون ولو بقدر ضئيل في إرضاء السلطان، ثم الآلاف يحرقون الكتب لأن الكتب باتت لعنة ويتحتم التخلص من اللعنة. لكن بعيدًا عن الشعور بالنصر، بعيدًا عن المصفقين، في أحد أطراف الميدان الكبير، خارج الدائرة قليلًا، كان ثمة من يشعرون بالخزي، ثمة من يشعرون بأنهم يزحفون على بطونهم بوجوه متكئة على رسغين، بقدمين تلامسان رأسًا وراءهما، وبرأس يكاد يلامس قدمين أمامهما، بعيون تسترق النظر لترى سببًا للإهانة بهذه الطريقة، فلا يعرفون الحكمة في هذه المذلة. حينئذ ربما قال أحدهم أرأيت، الشيخ لم يعتذر ولم يطلب المغفرة. حينئذ يرد آخر بأنه ربما كان ينتظر من يواسيه وهو يرى كل كتبه ومخطوطاته تنهشها

النار، فلم يجد. الشيخ لم يَخَف، الشيخ لا يعرف الخوف، ولا حتى رمش بعينه أمام السهم، يقول الأول. ومن نحن حتى نكون مثل الشيخ، لسنا إلا مجرد تابعين، عبيدًا مأمورين. لم تكن مجرد أوراق ما تحرقه ألسنة النار الحمراء والبنفسجية، كانت سنوات عمره، كانت خلاصة روحه. هذه الأوراق كانت تاريخًا، هذه الأوراق كانت ماضي المملكة، ولو قلنا الماضي، نقول المستقبل. حينئذ انتبه فردٌ فنبّه الباقين، انظر، إنه لا يبكي، انظر إنه لا يطلب المغفرة، انظر إنه يقف كنخلة سامقة ويتطلع إلينا بحسرة. ابك يا شيخ، ابك أو افعل ما يستدر العطف، ابك لتنجو من الهلاك. لكن الشيخ يتلفت حوله كطفل، كنخلة سامقة نعم، لكنه كطفل، كطفل وجد نفسه فجأة في أرض غريبة، ظل يتلفت حوله مدهوشًا، بكبرياء لكنه مدهوش، طفل وجد نفسه فجأة في أرض غريبة بينما كان يبحث عن أمه، كطفل يبحث عن أمه بعد أن تاهت منه في زحام ووسط عواصف ترابية. كان الشيخ مدهوشًا لا يصدق أن أحدًا لا يؤازره، فعلتُ ذلك من أجلكم، من أجل سعادتكم، لماذا تختارون التعاسة يا إخوة، قال من دون أن يسمعه أحد.

19

قالت السماء: الموت لحظة انتباه.

قالت السماء: حين يخمد الجسد، تبصر الروح.

20

كلما اشتد الماء والمطر اشتدت النار، كانوا يلقون مزيدًا من الحطب كي يحتفظوا باللهب متأججًا. لقد باتوا غرقى في ماء ودم، غير أن الماء كان أخف، كان أخف ويطفو على وجه الدم، غير أن الدم والماء لا يختلطان حتى لو اختلطا. ومن مكان ناتئ تطلعت إليهم العين، العين المفقودة أو العين الناجية، عين تلمع رغم انفصالها عن الجسد، أو بسبب ذلك ذاته، عين أكثر لمعانًا من العين المستقرة في وجه الشيخ. أكثر لمعانًا من كل العيون الواقفة في الميدان، وأكثر حياةً منها.

ومقيدًا كما كان، ومسحوبًا في طريق الرحيل إلى مكان لا يعرفه، التفتت إليه امرأة بوجه مشرق، وجه مألوف كأنه قادم من الطفولة البعيدة، وجه يعرفه كما لم يعرف وجهًا آخر. قالت المرأة بصوت قادم من عالم آخر لا تخف يا شيخ، المكان الذي سترحل إليه أفضل من مكانك الآن، وما ستراه

هناك هو الحقيقة كاملة. إن كان الشيخ قد اضطرب من الوجه، فذلك لأن هذا الوجه بالذات لم يكن مكانه هنا، ولا كان يشبه الوجوه الأخرى المحيطة به. لكن أكثر من إشراق الوجه كان الصوت، رنانًا كان، كأنه مغلف بنغمة موسيقية. كانت زوجته الأولى التي قُتِلتْ بيد الغدر، التي قُتِلت بيد الحب، فالحب قاتل كما الكراهية تمامًا. كانت زوجته الأولى وجاءت من عالم من يعرفون الحقيقة لتمسح على قلبه، لتنفخ فيه طمأنينة كان يحدسها غير أنه لم يختبرها من قبل. قالت المرأة عبارتها وتاهت في وسط الزحام، بينما تعلقت عين الشيخ الوحيدة بأفق بعيد، أفق يملؤه السلطان، السلطان الذي ينظر إليه منتظرًا ما كان يعرفه مسبقًا، منتظرًا ألا يرضخ الشيخ ولا يتوب، فيكون لديه الذريعة لينفّذ حكمه، وإن كان لا يحتاج إلى ذريعة. أثناء ذلك، بدأ يسرى بين الجمع همس، الهمس استحال همهمات، الهمهمات ارتفعت وغدت ضجيجًا، والرجل الواقف في آخر الصفوف، مبتلا بدموعه وعرقه، تحت نخلة سامقة يقترب رأسه من فروعها، كان يردد سؤالًا بعين مثبّتة في الأفق، وحدقة فارغة معلّقة بهرم الكتب والمخطوطات الذي كلما حُرِق تكاثر وتضخم. بعضهم التفت وراءه ونظر إلى الرجل الذي كان يُساق إلى أسفل التبّة ولعنه، وبعضهم نظر وأرسل له نظرة حانية، نظرة مودة. وجميعهم كانوا في حيرة، منذ ساعات يحرقون الكتب لكن الكتب لا تنتهي، الهرم يتمدد ويتسع، كأن رماد الكتب أكبر من الكتب ذاتها، كأن جثة الكتب تضخمت بعد الممات، كأن الحروف استقلت عن الكتب فتضخم معها الهرم. أقول "كأن الحروف استقلت" وهربت من الكتب حتى

لا يحرقها النار، أقول "كأن"، رغم أن الحروف بالفعل هربت، وسنعرف بعد ذلك أين استقرت.

21

في قمة الهرم استقرت عين الشيخ اليسرى، استقرت في جانب الهرم الأيسر لتنظر صوب السلطان. فخاف السلطان، شعر بأنها لعنة، واللعنة ينبغي التخلص منها. لكن اللعنات، كما نعرف، لا يمكن التخلص منها. أمر جنوده أن اقتلعوا العين من قمة الهرم، أن اخفوها. حينئذ أطلق الجنود رماحهم، رمحًا واثنين وثلاثة، عشرة وعشرين ومئة، آلاف الرماح أطلقوها على العين، لكن العين ظلت تنظر إلى السلطان بنظرة لامعة، بنظرة ساخرة، بنظرة لا تكتفي بالتبصر والرؤية، إنما تخترق وتتسلل إلى الداخل، تتسلل وترى. وكلما أطلق الجنود سهمًا على العين، نزفت الحدقة الفارغة، وسال الدم من مكان الشيخ السائر وانهمر في طريق متعرجة حتى يبلغ الميدان، فيبعث الدمُ الحياةَ في الدم المتخثر، الدم المتخثر على الأرض وعلى أقدام الجنود والحراس، ثم سار وجرى وبلغ رماد الكتب، هرم الرماد، ثم استحال الميدان ميدانَ دم من جديد.

أثناء ذلك كان الشيخ يواصل سيره، مع حراس ثلاثة شعروا بالراحة من فرمان السلطان باقتياده إلى مثواه، بالتأكيد لم تأت الراحة من فرحة في قلوبهم بما سيلقاه الشيخ، إنما لِحمل فوق أعناقهم، حمل يريدون التخلص منه، ألم مثل نصل سكين في جنبهم الأيمن، ألم الحب ربما، ألم الأسى، ومن يدري ربما ألم التخلص من دائنهم، ربما ألم ممزوج بفرحة. حينئذ فكوا أغلاله، وحينئذ تقدمهم الحارس الأول، واتبعه الحارسان الآخران عن يمين الشيخ ويساره. وحينئذ نزلوا من جانب قصي من التبّة، محاولين تجنب الدم وتفادي الغوص فيه. نزلوا في قلق وهَمّ، درجة وراء درجة، لكن ما من مفر، الدم في كل الجوانب وليس بوسعهم الطيران. غاصوا في الدم حتى رُكَبهم، واحد فحسب من انفتح له طريق، واحد فحسب كان لا يليق به أن يسير في بركة الدماء، واحد فحسب انفتح له طريق أبيض مثل نور الصباح، طريق معطّر مثل رائحة الريحان، وكان هذا الواحد، كما نتوقع، الشيخ ذاته.

22

قالت السماء: الموت مثل الحياة، يسعى إلى من يعرض عنه.

23

سار الشيخ في طريق ممهدة، وبعد أربع خطوات أو أربعين، التفت وراءه، ومن دون أن يرى زوجته ولا ابنه من خلف الحشود، لكنه أبصرهما، وأبصراه. نظر إليهما بعين واحدة وحدقة فارغة، وأبصرهما بالحدقة الفارغة. بدت زوجته كامرأة غريبة في أرض غريبة، بدت كتائهة كأنها وصلت حالًا إلى المملكة من أرض أخرى. يبصر الشيخ قلبها الممزق وروحها التي انخلعت من صدرها، لا يلقي عليها اللوم أن لم ترافقه، أن لم تدفع حياتها لترافقه في مصيره المحتوم، لا يلقي عليها اللوم لأنه يفكر أن ما جاءه مثل الموت، وفي الموت لا ينبغي أن ندعو المحبين ليرافقونا، غير أن عقلنة الموقف، لنقول الحقيقة كاملة، لم تكن كافية لتجريف الغصة من حلقه. يفكر الشيخ أن التخلي هو الابن البار للقسوة، حتى لو كانت قسوة مغلّفةً بدموع المحبين. وفي شروده التفت إلى ابنه، لم يكن الولد واقفًا بين الصفوف، الولد كان

يركض ويركض، من صف إلى صف، من مجموعة إلى مجموعة، كان يبحث عن ثقب يهرب منه إلى أبيه، لكنه كان محاطًا بالحراس، وكلما هرب من أحدهم واندس بين الناس، لاحقه آخر. هل كان قدر الولد المحتوم أن يجمع كل الأقاويل ويسمع كل الحكايات؟ وبينما كان الشيخ يغرب عن الميدان، جاء أمر السلطان لأهل المملكة أن انصرفوا، انصرفوا جميعًا، بدّلوا ثيابكم وعودوا بأبهى ما لديكم، ارتدوا ثياب الاحتفالات وعودوا. وأهل المملكة ينزوون، لكنهم يخلّفون وراءهم، في كل خطوة يخطونها، قدمًا حمراء. وبعيدًا عن الميدان، ستملأ خطواتهم الحمراء، بمقاس أقدامهم، أرض المملكة من شرقها إلى غربها.

24

من بعيد رأى خطوات أهل المملكة السريعة وقد ابتعدت عن الميدان، خطوات متعجلة كأنهم يهربون من ذكرياتهم، كأنهم يودون طمس ماضيهم، كأنهم بهجر الميدان يبدؤون حياة جديدة. وفي الأفق البعيد، فوق تبّة السلطان ذاته، رأى الشيخ، من مكانه البعيد، الرجلَ الذي وشى به، الرجل الذي سيحل محله يجلس الآن بجانب زوجة، على يمين السلطان. الرجل الذي وشى به وبسببه فقد سلطانه يتلفت حوله كأنه يراقب مدينته الجديدة. الرجل الذي لم يعتن حتى بالنظر إليه يرمقه بنظرة ازدراء واحدة ووحيدة، ثم راح يجول بعيدًا مع زوجة، بريش منفوش، بنفس أبية، بعجرفة تشبه عجرفته ذاتها ذات يوم، ذات يوم حين كان في مطلع شبابه ويظن أنه ملك الدنيا وما فيها. الرجل الذي رمقه بنظرة ازدراء لم يهبط إلى الميدان لكيلا تبتل قدماه بالدم، بل أعدوا له هودجًا ليحملوه عليه هو وزوجته، هودجًا

بالطبع أقل بذخًا من هودج السلطان، السلطان الذي اختفى عن الأفق من دون أن يدري أحد أين اختفى ومتى.

حينئذ عادوا جميعًا مزينين بأبهى ثيابهم، سعداء يسيرون بخطوات واثقة، علامات الاستحمام باديةً عليهم، والسرور مرسوم على وجوههم، يتبادلون الحديث بينما بينهم، إلا خمسة منهم كانوا شاردين. رجلان كانا قد سألا عن جدوى حرق الكتب، وكانا من حراس الشيخ حتى اليوم السابق على هذا اليوم المشهود، والثالث مستشاره وناصحه الذي لم يلفظ بكلمة. أما الرابع فكان ابنه، ناضرًا كان ثم ذبل في ساعات، جميلًا كان ثم غدا قاتمًا. والخامس كانت زوجته، حزينة عادت كما ذهبت، بثياب ليس فيها من الأناقة ولا الزهو شيء، ثياب أقرب إلى ملابس الحداد. عادت صامتة كأنها بلعت لسانها. بحثت بعينيها عن زوجها حتى وجدته، بعيدًا بعيدًا جدًّا، نقطة في أفق، يسير خطوتين ويتلفت وراءه. يسير في التيه وقد تجلى بين الجبلين. حينئذ انتبهتْ إلى أنهم جردوه من ثيابه، في تلك اللحظة بالذات التفتت إلى عريه. وبكت.

25

استثنينا من العائدين إلى الميدان فرحين خمسة فحسب. لكن بتأمل المشهد مرة أخرى، وبتدقيق النظر إلى الوجوه، التفتنا لخطئنا. كان ثمة مئات من الوجوه المغتمة، كأنهم في طريقهم إلى حداد، إلى دفن عزيز، وكان التناقض جليًّا بين ثيابهم الأنيقة ووجوههم المسوّدة. دارت حوارات ثنائية من تحت الضرس، وليس المقصود بتحت الضرس أنها حوارات استياء فحسب، إنما هذه طريقتهم في الهمس والهمهمة حتى لا يسمع أحد ولا يلتفت أحد. قال أحدهم:

– هل لاحظت أن الدماء علقت بأقدامنا حتى عتبات بيوتنا، بل وحتى أسرّتنا؟

نظر إليه الآخر بحزن أكبر، وقال:

– هل تعلم أني خلعت نعليّ بعد أن خرجت من محيط الميدان لأن الدم كان يطبع خطواتي؟

– يا لها من فكرة لم تخطر لي!

– هل تعلم أني بعد أن خلعت نعليّ وسرت حافيًا ظلت قدماي تطبعان دمًا على الأرض؟

– كيف ذلك؟

– سرت أكثر من خمس مئة متر حافيًا، وكلما التفتُّ ورائي رأيت أثر قدميّ أحمر، بأصابعي وكل شيء.

أحد المجاورين التقطت أذناه العبارة الأخيرة فتطفل على الحوار:

– ونحن فعلنا مثلك يا سيدي، كنا نريد التخلص من الدم العالق بالنعلين، فاكتشفنا أن الدم عالق بالقدمين نفسيهما.

26

مرت شموس وأقمار، وهم يقطعون طريقًا طويلة، ثلاثة حراس وشيخ صعدوا تلالًا وهبطوا سفوحًا. أشفقوا على رجل لم يتفوه بكلمة، أو لم يسمعوه يتفوه، أشفقوا حينًا ووبخوه حينًا، بلغ الماء سيقانهم في مكان وارتطمت أقدامهم بأحجار في مكان آخر. تساءلوا إن كانت مهمتهم برفقة الشيخ تكريمًا أم عقابًا، وانتهوا إلى أن السؤال بلا جدوى، فبعد الرضوخ والمذلة لن يكون لأي تكريم أي معنى. جميعهم تعرّق، جميعهم ارتجف من البرد، جميعهم شعر بالجوع والعطش، وجميعهم، فردًا فردًا، راح ليقضي حاجته خلف تبّة وعاد يلعن هذا التشرد. رنوا إلى الأمام كما التفتوا إلى الوراء، وفي الأمام لم يكن إلا ثمة أفق متسع وليل كحيوان متوحش يلتهمهم، وفي الوراء آثار خطوات الشيخ وحده، آثار بيضاء تُطبع في الأرض الرملية الجافة والمبلولة. كأن حيوانًا متوحشًا يمحو أثرهم جميعًا، أثرهم الأحمر، بينما ينحت أثر الشيخ، خطوات بيضاء كأنها من الثلج، كأنها من المرمر.

27

وفي أرض من أحجار كبيرة، أحجار جيرية بيضاء، أرض كأن يدًا غير آدمية شقت فيها طريقًا، ورسمت بشكل مبهم حروفًا غير مقروءة، التفت الشيخ إلى الحارسين وطلب أن يجلس. كانت بطنه خاوية، لكن الخواء بداخل روحه كان أكبر، كان يشعر بالأحرى بأنهم انتزعوا منه قلبه فبقي مكانه فراغًا، قال إنه يشعر بالنزيف بداخله، قال وكرر حتى ظن الحراس أن العقاب سيكون موته. دمعت عينا الأول، وانتفض الثاني لمجرد الفكرة. لا أحد فيهم يعرف أين القِبلة، غير أن الحارس الدليل يمتلك الوصف، يعرف كم يومًا وليلة سيسير، كم تلًا وتبةً سيتجاوز، ويعرف أنهم اقتربوا من دون أن يعرف المسافة المتبقية. أنا جائع، قال الحارس الثاني واعترض، لكنه مجرد اعتراض عابر تلاشى حين لم يجد صدى. فكّر الحارس الأول أن يمنح إلى الرجل قطعة ثيابٍ تقيه البرد، اقتراح مرفوض بالطبع، ماذا تظن

يا رجل، نحن في صحبة شيخ مُعاقب ومهمتنا أن نحافظ على العقاب. دار هذا الجدل كلحظة عابرة أمام رجل استحضر زوجته واغتم حين فكّر في حالها من بعد رحيله، وكان محقًا في غمه، إذ كانت المرأة منزوية في ركن قصي، محبوسة من دون ذنب اقترفته، تتظاهر بأن شيئًا لم يحدث، لكن شيئًا قد حدث. لقد سلّم الشيخ في لحظة بمصيره هو، رأى أن الحياة خطوات ينبغي أن نخطوها، وما من جدوى لتجنب خطوة، وما التجنب إلا تأجيل، والتأجيل هروب، والهروب جبن. لقد سلّم الشيخ بأن حياته انتهت هنا، لكن حياة الإنسان، لو تأملنا النظر، مثل حياة القطط، تنتهي مئات المرات وتبدأ من جديد. كل خسارة موت مؤقت، نفيق منه على حياة جديدة، وكل حياة جديدة خسارة مؤجلة. وما بين البدء في حياة وبلوغ الخسارة مرحلة هدنة قد تطول أو تقصر، لكنها حتمًا ستنتهي.

28

في تلك اللحظة كانت المرأة تسير بجانب ابن الشيخ، كأنها جاءت حالًا من مدينة بعيدة. متى انحنى ظهرها وتمخض عن هذه الحدبة؟ متى استحالت ضفيرتاها خطين أبيضين متعرجين؟ لم يقترب منها أحد ليسألها عن حالها، لكنهم كانوا يراقبونها من بعيد، فكروا أن يقتربوا، ربما فكروا أن يقتربوا، غير أنهم لم يتجرؤوا على الاقتراب، فرغم إقصاء زوجها الذي كان شيخهم، اليد الحانية التي ربتت على أكتافهم، لكنه أيضًا ذو المكانة بينهم. الكل يذكر ذلك ولا ينكره، يذكرون أنه كان واحدًا منهم، حتى لو كان جزءًا من السلطة.

تمر السيدة من أمامهم كبيت مهدّم، كأثر قديم طالته يد الإهمال، كمدينة مهجورة يكسوها الغبار، حتى الذين فرحوا بمعاقبة الرجل هربت الدموع من أعينهم، على الأقل شعروا بشفقة أن العقاب نال أيضًا من لم يرتكب

ذنبًا، كأن العقاب، في قسوته وعماه، مثل أخطبوط بألف ذراع، ذراع واحدة تنال من يستحق، والباقون أبرياء.

29

لقد تغير كل شيء في غمضة عين، ومن يضمن ألا تحدث تغيرات أخرى. وشاع بينهم، من دون أن يعرف أحد مصدر ذلك، أنهم سيهجرون وسط المملكة ويستقرون على أطرافها، لتكون المملكة بذلك من أجل الرجل الجديد، فلا يبقى فيها إلا الخدم والحشم. وشاع أن الرجل الجديد يسيطر على السلطان، كخاتم في إصبعه، وأنه سيدير المملكة من وراء ستار. لكن شاع أيضًا أن الرجل الجديد سينشئ مملكة جديدة لينتقل إليها الحكم، وستبقى هذه مملكة مهجورة، لا يسكنها إلا المزارعون والصُنّاع، فلا تعني للسلطة إلا أرضًا للجباية. لكنه مجرد كلام يُقال، كلام تناقلته الألسن في هذه الأيام بلا دليل، كلام يقال ويحيط به الشك، غير أن التجربة علمتنا أن الشائعات مصدرها السلطة، وأن الشائعات إحدى طرق جس النبض، وإن كان جس النبض في حالة المملكة غير مجدٍ، فمن بوسعه أن يعترض

على السلطان، ومَن اعترض يعرف الجميع ما ناله من مصير.

إنهم يفكرون في مستقبلهم لأنهم عاجزون عن التفكير في حاضرهم، يفكرون في مصير الشيخ لأنه ليس بوسعهم أن يفكروا في أنفسهم، يشغلون أنفسهم بعصيان الشيخ حتى لا ينشغلون بالإهانة التي تجرعوها وسالت من أفواههم. والآن يسيرون شاردين، يتأملون المشهد كمن يتأمل البيت بعد احتراقه، يستنشقون الهواء الملوث بالدخان فيصيبهم بدوخة، بنوع من السطل، سطل يرافقه ضيق في التنفس. يسيرون كأنهم ممسوسون بمس من الشيطان.

30

عاد الحراس والجنود سريعًا إلى الميدان قبل وصول أهل المملكة، عادوا ليجففوا الأرض من الدماء ويعيدوها سيرتها الأولى، نظيفةً لامعةً. كان الأمل أن يعود الميدان لائقًا بالاحتفال، غير أنهم كانوا بؤساء حين لم يدركوا أن لا أحدَ بوسعه محو الذكرى، وأن الماضي ملتصق بنا كما جلودنا ذاتها، حتى لو داريناه بثوب. قضوا في ذلك ساعات، قضوا في ذلك أيامًا، يوزعون دم العين المثقوبة في كل مكان، يمنة ويسرة، حتى يزيلوا الأثر. كان الدم غزيرًا جدًّ إلى حد أنه ملأ كيلومترات حول دائرة الميدان الواسعة بعد توزيعه، كان بحيرة. ثم صبوا الماء، صبوا وصبوا، صبوا ووزعوا الماء، مرت ساعات وهم يصبون الماء ويوزعونه مخلوطًا بالدم، حينئذ كان أهل المملكة قد عادوا وشاهدوا عملية التنظيف. في هذا المشهد ظهر السلطان فوق التبّة، وخلفه الرجل الجديد وزوجته. كان غاضبًا، كانت خطته تنظيف الميدان

قبل عودة الأهالي. كانت خطته إطلاق الموسيقى والرقص والاحتفال، كان يريد أن يعلن أن اليوم "عيد المملكة". مد الأهالي أياديهم ليساعدوا الحرس، حاولوا معهم تنظيف الميدان. لكن الدم تخثر في الأرض، تخثر وليس بوسع أحد إزالته. والذين يعرفون لا بد أنهم يعرفون أن الأرض لا تشرب الدم.

31

قالت السماء: يموت الجسد ولا تموت الروح.

قالت السماء: تبقى الروح هائمة بأمنيات لا تتحقق، برغبات لا تجد جسدًا ليحققها.

قالت السماء: الجسد مقبرة الروح المؤقتة.

32

في ركن قصي عن الميدان، جلست زوجة الشيخ وحيدة تحت شجرة توت، شجرة كانت قد زرعتها بيديها في زمن آخر، كأنها في انتظار حدوث معجزة تعلم عن يقين أنها لن تحدث. يسليها أن دمعتيّ الشيخ صنعتا بئرًا، كلما شربت منها ستشعر به يدخل إليها. بئرًا كلما اشتاقت لرائحته ستقترب منها، رائحة كالخمر ستسكرها وتتخلل إلى خلاياها، رائحة لا تزال عالقة بطرف أنفها من قُبلة من ليلة سابقة كانت لعمقها وطول مدتها قُبلة الوداع. كان يشغلها مصير الشيخ، كانت ترتعب من مصير غامض لن يخرج عن اختيارين: القتل أو الحبس الأبدي. كانت تستبعد القتل، لو أراد السلطان لقتله في الميدان. لكن، أليس الحبس قتلًا آخر؟ أليس في الحبس تعذيب قد يؤدي إلى موت؟ ما الفرق بين ميت لن نراه أبدًا وحي لن نراه أبدًا؟ هل للموت معنى آخر غير غياب بلا عودة؟

تراقب السيدةُ الميدانَ البعيد لكنه في مدى نظرها، ترى الحراس والجنود وسكّان المملكة ينظفون الأرض من دم عين مثقوبة، فتشعر بأنهم يكنسون صدرها، ثمة صرير يسري بداخلها ويرن صداه في أذنها. مع ذلك تسخر منهم السيدة بنصف ابتسامة، تقول بصوت هامس "من يستطيع أن يمحو الأثر!". يقطع الأفق خطوات الابن البعيد، لم يصل إلى الحُلُم بعد، ويتجول في الميدان كالتائه. رغم كل شيء لا يصدّق ما يجري، كأن ما يجري يحدث في حلم، كأن ما يجري يتطلع هو عليه من شرفة. تابعته السيدة بعينين ذابلتين وتذكرتْ أنها امرأة عاقر، أن رحمها لم يحمل جنينًا يواسيها في ليالي الهجر، أن ابنها، رغم أنها من ربته، إلا أنه ليس ابنها، ليس إلا ابن الشيخ من امرأة أخرى، وأن صدرها سيحمل للأبد حنينًا إلى فم بلا أسنان يضغط على حلمتيه. ستضطجع المرأة تحت شجرة التوت كأرملة أدركت بعد فوات الأوان أن الحب والسعادة مجرد لحظات عابرة، وأن ما يتبقى في حياتها لا يغدو أن يكون استرجاعًا لذكريات أبدًا لن تعود. تصوّب نظرة إلى البعيد، وتراقب الاضطراب في الحركة كأن المكان المنظّم بات فوضويًا، كأن المكان متضح العوالم بات متاهة، كأن اللغة الموحدة التي كانوا يتحدثونها جميعًا قد ضاعت، غدت برج بابل، ولم يتبق منها إلا حروف تشكّل كلمات جديدة تشكّل بدورها لغة لا تعرفها، لا هي ولا الآخرون.

33

حين تتكئ السيدة بظهر مجهد إلى شجرة توت غدت يابسة، وحين ترفع رأسها إلى السماء بحثًا عن غيب لا تعرف عنه شيئًا، سترى زوجها بظهر أحدب يجتاز تلالًا وتبّات، يسير ويسير بينما تمطر وتمطر، تمر سحابة سوداء فيتوارى وراءها ثم ما يلبث أن يظهر من جديد، يمر بطرق وعرة برأس مطرق، يمر بطرق وعرة بقدمين ثقيلتين، يمر بطرق وعرة بينما يفكّر في زوجته التي نالت عقابًا لا تستحقه، يمر بطرق وعرة فتهرب منه دمعتان ينفطر لهما قلبها، كما تنفطر الأرض ببئر أخرى، إذ يتولّد من الدمعة دموع، وإذ تستحيل الدموع ماءً عذبًا. تشاهد المرأة من مكانها بالأرض وبالشجرة اليابسة من ورائها زوجها وقد اقترب من مملكة لا تبدو أنها مملكتها، وترى راحة يد الحارس الدليل ترتفع لتشير بالتوقف. وتسمع الحارس يقول للحارسَين هنا المكان، هنا انتهى المطاف، ها نحن قد وصلنا إلى قبلتنا.

34

قال دليل الحراس: هنا القبو، هنا القبو حيث سيمكث الشيخ، هنا العقاب الذي فرضه السلطان، هنا الزنزانة الأبدية.

35

سقط الشيخ مغشيًا عليه، لم تحتمل قدماه خبر الحبس الأبدي، كان ينتظر الموت لا البقاء معلقًا في ذل الزنزانة. مرت دقائق حاول فيها الحراس أن يعيدوه إلى وعيه، وحين عاد فكّر أنه كان مستخدَمًا، لعبة بيد السلطان تسليه في وقت فراغه، حلية يزين بها مدخل قصره. لم يكن يتوقع الغدر، ولا خطر له أن مخطوطات تحمل تاريخ الأمم، ومخطوطات سعت إلى وضع مبادئ العدل، وقائمة بأسماء مختفين على سبيل الذكرى والتذكر، ستؤدي به إلى سلب حياته. ظلت العبارات تدور في رأسه في شكل دوائر، ظلت تدور كأنها دوامات هوائية، دوامات تخبط في جدران رأسه ويرتد من جدار إلى جدار. وفي لحظة يغيب العالم، يسقط الرجل على وجهه وترتطم جبهته بصخرة وتنشق جبهته شقًا طوليًا، ومن الشق ينبثق دم، دم يشهده بحدقة عين فارغة شبه مغمضة. والدم يسيل على الأرض. الدم يصنع بحرًا أحمر،

إذ يتولّد من كل قطرة قطرات، ومن كل قطرات قطرات لانهائية. يصل الدم حتى كواحل الحراس من دون أن يغطي جسد الشيخ المُلقى على الأرض. يصرخ الحراس الثلاثة ويحملونه، يخرجونه من بركة الدم قبل أن تستحيل بحرًا يغرقون فيه، يحملونه ويتجهون إلى مرتفع لن يستطيع الدم أن يتسلقه، هذه المرة لن يستطيع الدم أن يتسلقه. ومن مكانهم يشاهدون تزايد الدم، تحوُّل البركة الصغيرة إلى بحيرة، إلى بحيرة متسعة، إلى بحر. كل ذلك يحدث في دقائق معدودات. كل ذلك يحدث والشيخ مستلقٍ على ظهره ينظر إلى السماء، ينظر إلى السماء ويرى فيها كل ما يحدث حوله، يرى تولد القطرات ونمو البحر. ويرى، يا للعجب، زوجته جالسة تحت شجرة التوت تتطلع إليه.

36

بعد سنوات طويلة من هذه اللحظة، ستشق المراكب الشراعية هذا البحر، ستضرب المجاديف قطراته المهدهدة. بعد سنوات طويلة من هذه اللحظة، سيتواعد عاشقان للجلوس على ضفة البحر، بينما يشاهدان موجاته المتهادية. وبعد سنوات طويلة من هذه اللحظة، سيأتي رجال بصنارات صيد ويصطادون سمكًا أحمر يسمونه سمكًا ملونًا. بعد هذه السنوات الطويلة، سيأتي أناس من كل الممالك، مستغلين الرمال والجبال الصغيرة والتبّات، مستغلين الشمس وصفاء الجو، ليدقوا الشماسي على شاطئ نفس البحر، ويتجردون من ملابسهم الثقيلة، مانحين لأجسادهم الحرية الكافية، ليسبحوا بين القطرات اللانهائية، متقافزين فوق الموجات.

37

بكت المرأة، من مكانها تحت شجرة التوت، حتى صنعت دموعها بِركة حولها، ومدت يديها إلى أعلى كأنها تتوق إلى أن تأخذ بيده. لم يفهم المحيطون بها، المتلصصون عليها من بعيد، ماذا تفعل المرأة بيدين تنقبضان وتنبسطان، وسادت همهمات بأن جنونًا ما أصابها. وحين ودّعه الحراس في أسى، والتفت الحارس الدليل إليه بعد خطوات من الوداع، كان الشيخ ينظر إلى أفق بعيد ويرسل تحية بيد مرتجفة، لكنها لم تكن لهم، إنما لزوجته الجالسة تحت الشجرة، باسطةً ذراعيها إليه. حينها التقت عيناه بعينيها، فلم يستطع الوعد بالعودة، لكنه وعد بما هو أبقى، أن تبقى محفورة بداخله للأبد، لأبده هو، من دون أن يعرف أن أبده هو نفسه أبد العالم. في تلك اللحظة ضمت المرأة يديها وقبّلتهما، كأنها تقبّل يديه، وابتسمت بدموع تهرب من عينيها، دموع لن تصنع بئرًا، لكنها ستروي الشجرة اليابسة فتعيد إليها شبابها الأول، وتطرح ثمرات توت شهية.

لن يقطع اللحظة أصوات المعذّبين بالسياط، ولا النسور التي انتشرت في الأفق وظلت تطارد أهل المملكة، نسور لا أحد يعرف من أين جاءت، وأفراد ظلوا يركضون لا يعرفون إلى أين، بينما السلطان كان مختبئًا في قصره، والرجل الجديد وزوجته تحت مظلة من الريش. وتحت الأرض، تضج سيقان مبتورة منذ قديم الزمن، سيقان تركض وتركض لتصطدم بجدران بحثًا عن طريق للخروج، بحثًا عن باب، بحثًا عن سلم. لكن أوان الخروج لم يأتِ بعد.

38

عاريًا مثلما ولدته أمه، لأن له أمًّا وإن بدا غير ذلك، وقف الشيخ يتأمل درجات السلم. كان شبه دائخ، لا بد أن السقطة على الأرض بقدر ما فتحت ثقبًا في رأسه فتحت ثقبًا في جدار أصم كان يقع أمامه. حين تأمل ودقق النظر، رأى فتحةً يتطلع منها رجل كالظل، ثم أخذت الفتحة في الاتساع حتى تجلى الظل كاملًا: رجل غائم، يقف وراء ضباب، ضباب أو دخان. رجل طويل وملتحٍ، يشبهه، وإن كان أقوى منه وبقوام مشدود. اللافت أن الرجل الآخر، الظل، مثله تمامًا بحدقة فارغة. أيكون الظل هو نفسه والآن يقف أمام مرآة؟ أيكون الظل هو روحه التي سيواصل بها الحياة في القبو؟ هل تلاشى جسده بالفعل في المسافة التي قطعها من الميدان إلى القبو؟ أي شيء يمكن أن يثبت للميت أنه ميت؟

39

على الدرجة الأولى من السلم، شرد الشيخ لدقائق كأنه في خط فاصل بين الماضي من ورائه والمستقبل أمامه، أو المستقبل من ورائه والماضي أمامه. بالطبع لم يخطر بباله الهرب، أو ربما خطر له وتراجع، الهرب من ماذا وإلى أين، لقد غدا في أرض غريبة ونائية، وليس بوسعه أن يعود من حيث أتى. ثم كيف يعود الرجل إلى حيث طُرد، كيف يدق بابًا صُفِق في وجهه. كان يعرف كذلك وعن يقين أنه مُراقَب، وأن أي محاولة لتفادي هذا المصير لا يعلم أحد إلا الله وحده ماذا ستكون عاقبتها. غير أنه بعد سنوات طويلة سيعرف أن العودة لم تكن ممكنة ولا كان الاستسلام لمصيره اختيارًا، إذ بمجرد أن ودّعه الحراس وعادوا سيرًا إلى المملكـة، أُقيمت حول القبو، ومن العدم، أسوار عالية، كأن يدًا خفية شيّدت بنيانها، حجرًا فوق حجر، حجرًا بجوار حجر. حتى بات السور جدارًا عازلًا بين البحر الأحمر في

السهل وبين القبو المرتفع قليلًا فوق تبّة. ومن يدري، ربما يستغله العشاق ذات يوم ليرسموا عليه قلوبًا وسهامًا.

40

قالت السماء: ألم الروح الوحيد أن لا أحدَ يراها.

قالت السماء: تسير الروح على قدمين، تطير بخفة، تطفو. تخترق الحُجُب. غير أنها محتجبة الهيئة. غير أن أحدًا لا يسمعها.

41

على مهل كالمساق إلى الجحيم، بدأ الشيخ ينزل درجات السلم. درجات تختلف عن تلك التي كان يتغندر عليها في ماضٍ قريب، أو في مستقبل قريب، إذ ستكون كل أزمنته زمنًا واحدًا، زمنًا يتجاور فيه ما حدث وما سيحدث. من قبل، كان يتغندر على سلم وهو نافش ريشه وبصحبة أجمل امرأة في المملكة. السلم القديم، سلم قصره المُهدَى من السلطان، كان يتكوّن من درجة من ذهب ودرجة من فضة، ومحاطًا بدرابزين مزينًا بعقيق وزبرجد، وفي منتصفه سجادة حمراء ناعمةً وغليظة. أما السلم الذي ينزل درجاته الآن، وحيدًا، وإن كانت عينا المرأة لا تزال تراقبه، فسلم قديم جدًا، قديم ومتهالك حد أن درجاته اصفرت، درجاته الحجرية اصفرت، اصفرت وذابت أطرافها، رغم أن أحدًا، بحسب ما نظن، لم يطأها من قبل. كأن السلم والقبو قد خُلقا منذ بداية الخلق ليكونا له وحده، كأن كل شيء كان

معدًا سلفًا من أجل عقابه. من أجل عقابه أم من أجل تكريمه؟ سيعلم الشيخ أن السلم الذي يؤدي إلى النزول لن يؤدي إلى الصعود، وأن الأبواب التي تؤدي إلى الدخول لا تؤدي إلى الخروج، ليس لأن السلم يتغير، ولا لأن الأبواب تتبدل، إنما لأن الشيخ، شأنه شأن البشر أجمعين، سيتغير في المسافة بين حالتين، فأسباب الغرق لن تكون أسباب النجاة، وأسباب الموت لن تكون نفسها أسباب الحياة.

42

كان مأمورًا، كما تبيّن له، بهبوط السلم فورًا، مع ذلك تلكأ حتى يرى النهار الأخير، أو ما يظنه الأخير. كان يجلس بين درجة ودرجة، كان يستريح كمتسلق جبال، كان يستريح كما كان يستريح منذ زمن قريب حين كان يتسلق الجبال، إذ كانت هذه إحدى هواياته الأثيرة، تسلُق الجبال عند الفجر عند كل هلال، كأنه يصعد إلى السماء، كأن تسلق الجبال يقرّبه من السماء، وهناك، في القمة، كان يستريح لساعات، ربما أيضًا لأن القمة كانت تغريه، فيشعر معها بأنه أعلى من الأرض. وللمفارقة، لا يزال يتّبع نفس العادة رغم أنه الآن ينزل إلى عمق الأرض.

ثم يخطر له أن من سخرية الحياة أن عمق الأرض يوصّل إلى قمة السماء، كأن بينهما سبيلًا مفتوحًا. يفكر أن كروية الأرض تعني، حتى لو اختلف العلماء، أن الدفن في عمق الأرض يوصّل إلى السماء. أليس الدفن في الأرض بعد الموت إحدى طرق الوصول إلى السماء؟ وربما الطريقة الوحيدة المؤكدة.

43

يُهيأ له أنه يسمع صخب ضربات فأس في أرض بعيدة. يُهيأ له أنه يرى المزارعين يحرثون الأرض ويبذرون البذور، ومنهم من يزرع شجرات قصيرة قد تنمو ذات يوم وتصنع ظلًا. وفي لحظة يخطر له أن في جانب بعيد، شبه ناءٍ، ثمة حارسان يحفران عميقًا في الأرض، يحفران بهمة وبدون توقف، يحفران بفأسين كبيرتين، هائلتين، وكلما حفرا بانت درجات سلم قديم، درجات سلم قد تبلغ الألف، درجات سلم تؤدي إلى قبو، وعلى إحدى الدرجات يقف شيخ عارٍ، شيخ بشعر أبيض وطويل، شيخ بظهر أحدب وبشرة بيضاء وناعمة، شيخ يبدو سعيدًا بمصيره الجديد رغم أنه لم يختره. قد يظن من يرى الحارسين من الوراء أنهما يعملان بهمة أو أن ضربات فأسيهما تصيب في الهدف المقصود. غير أن من ينظر إلى وجهيهما الآن، مثلما ينظر الشيخ نفسه إليهما بعين خياله، سيلتفت إلى دموعهما التي تسيل على

التراب فتحوّله إلى طين، والطين، كما نعلم، أسهل في حفره من التراب. سيتوقف الحارسان لبرهة وهما يتبادلان النظر مع الشيخ، ليتذكروا جميعًا سيرهما خلفه حين كان يتجول بالمملكة، كان طويلًا جدًا حد أنه يحجب الشمس عنهما، كأنه نخلة سامقة تحفل رأسها بسعف وتمر ناضج، وكأنه، في خطواته الواسعة، قمر مضيء.

44

يتوقف الحارسان عن الحفر، بينما تسيل من عينيهما دموع تشبه المطر، تتسلل الأمتار الكثيرة لتسقط في النهاية على شعر الشيخ وجبهته، فلا يشعر في مذاقها ملوحة، إنما عذوبة تروي عطشه. أثناء ذلك، تتأجج المملكة بالاضطراب، اضطراب مكتوم تحت قشرة من الصمت، قد يفسره البعض بأنه الصمت الحكيم، لكنه قد يكون صمت المتأمل للحظة بحثًا عن ثقب يهرب منه الكلام. الصمت الأشد عنفًا من الكلام، الصمت الذي يقوّض كل شيء في طرفة عين ثم يدفعنا للسير على الأنقاض. لكن، هل يشعر أهل المملكة بأي احتقان لما حدث؟ ربما نعم، ربما بعضهم، لكن المؤكد أنهم يشعرون بالخوف، كأنهم ناموا ليلتهم في بيت واستيقظوا صباحًا في العراء. يبصر الشيخ السماء فيشاهد زوجته، لا تكتفي بالنظر إليه، بل تحكي له ما تراه. جسر هي بين المملكة وبينه، بكلماتها ترسم الحياة هناك: حراس

يسحبون مذنبين إلى زنزانة، أشجار جفت ويبست كأننا في الخريف، جو غائم ومضبب، وجوه بيضاء ليس من النور إنما من التجمُّد، من نقصان الدم. سيكون يوم رحيل الشيخ يومًا فاصلًا في تاريخ المملكة، ما قبل وما بعد.

45

سينزل الشيخ درجات السلم المتبقية في ثلاثة أيام وليلتين. سيهاجمه، بالإضافة إلى الجوع والعطش وجفاف الفم، شعور أكبر بالحنين إلى النوم بجانب زوجته، بالحنين تحديدًا إلى الساعة الأخيرة قبل النوم، بعد أن يسلّم كلَ أسلحته ويغدو طائرًا مسالمًا في عشه. مستلقيًا على ظهره، فوق متكأ من ريش النعام، يحكي لزوجته الثانية ويسمع منها، لن يستثني من الحكي مخاوفه من استمرار الحياة على نفس الوتيرة، ومخاوفه من التغيرات الأخيرة، من الاختفاءات الغريبة التي تحدث لأبناء المملكة. يحكي لها عن القائمة التي تطول يومًا وراء يوم بأسماء مختفين جدد، أين يمكن أن يكونوا، أي يد قاسية نزعت عنهم أمانهم، كان يردد بينما يضع زوجته في حيرة، إذ لا تعرف المرأة ماذا تقول، إذ كانت المرأة تحدس أذىً سيصيبه، من دون أن تعرف أي نوع هو، ولا متى سيقع.

46

في أيام كثيرة، كان يتذكر أسطورة عن رجل سمّاه رجل الكابوس.

تحكي الأسطورة أنه كان هناك رجل لا تمر ليلة إلا ويحلم بكابوس، كابوس أن لصوصًا يتجولون ببيته، يدخلون غرفة النوم ويفتحون خزانة الملابس، ويتطلعون من الشرفة كأنهم يتطلعون على حديقتهم، ويجهزون الطعام ويشربون ويثملون. ومن نومه كان قلقًا، يتطلع إليهم تطلع الموتى إلى الأحياء، بينما كان يحاول استعادة نفسه ليطردهم، من دون جدوى.

كان الكابوس يوميًا، واستمر لسنوات، حد أنه كان يغلق الأبواب فلا يمر منها أصغر الحشرات، ويسكر النوافذ والشرفات عن آخرها فلا تتسلل منها نسمة هواء، كأن الكابوس يأتيه من بين الثغرات، وكأن اللصوص ناموس لديه القدرة على تخلل الثقوب الصغيرة ولدغه لدغة تخلّف أثرًا واهنًا.

ورغم أن الكابوس كان مؤلمًا، كان يستنزف أحلامه وساعات نومه، إلا أنه حلم ذات يوم بكابوس أفظع، أنه هو نفسه اللص الذي يعيش في بيت ليس بيته، ليس كطيف غير مرئي، بل كوجود جسدي يلحظه أصحاب البيت فلا يضايقونه.

ورغم قسوة هذا الكابوس، كابوس أنه لص ينام في سرير ليس سريره، يرتدي ملابس ليست ملابسه، يتغطى بأغطية ليست له، بجوار امرأة ليست امرأته، فإنه استمرأ هذا الكابوس، إذ على الأقل لديه القدرة، أو الخيار، أن يرحل حين يصحو دون شعور بالهزيمة، هزيمة ظل يتجرعها لسنوات حين كان عاجزًا عن طرد لصوص من بيته.

47

الظل الذي رافقه منذ كان على أولى درجات سلم القبو، كان يتأمله ويقول:

– عندي ندبات في جبهتي، ومثيلات لها، بالضبط، في باطن قدمي اليمنى. كأن جبهتي كانت تتقاسم مع قدمي الخطوات فوق زجاج، أو كأن ندبات الجبهة صدى لندبات القدم.

فيقول الشيخ:

– كل ندبة بالجسد لها صداها بالجبهة، لها صورتها المطابقة، لها عمقها وأبعادها.

48

سيقف الشيخ حائرًا أمام باب خشبي ضخم، باب قديم، بالطبع، كأنه خُلِق قبل الخلق، كأنه بوابة العبور إلى العالم، كأن وراءه يقبع سر الكون الكبير. باب خشبي بلون بني فاتح، تشقه خطوط طولية ضيقة، وينتهي بقمة مقوّسة، عليها كتابة بحروف غير واضحة. باب ضخم بلا مفتاح، يحتاج إلى مئات الرجال لدفعه. مع ذلك، وفي لمح البصر، سيُفتح أمامه ما إن يلمسه بأطراف السبابة والوسطى والبنصر، ثلاث أصابع كانت كافية ليرى أمام عينيه، على عكس ما توقّع، قبوًا في شكل غرفة واسعة ومضيئة. يتقدم بخطوات مترددة كمن جاء من اليابسة ليلج ماءً، يطأ بقدمين حافيتين أرضًا مستوية، ليجد نفسه محاطًا بأربعة حوائط وسقف مرتفع، سقف يبدو في ارتفاعه كسماء، سقف به ثقب يعبر منه الضوء، لن يعرف أبدًا من صنعه. بدا له القبو، من دون أن يفرّق إن كان ذلك حقيقة

أم محض وهم، صورة مصغرة من بيته السابق، لقد عثر في عمق القبو على سرير وثياب، ليست بنفس الفخامة لكنها ملائمة له، صُنعت خصيصًا من أجل راحته، وحتى لا يعاني بجسد عارٍ من قسوة الأرض ورطوبتها. غير أن الشعور بألفة المكان لم تكن لأسباب مادية بقدر ما كانت حالة شعورية، حالة تسللت إليه كأنه في مكانه الطبيعي، أو كأن مكانه السابق لم يكن إلا عتبة للدخول في المكان الجديد.

في الدقائق الأولى في القبو، أصغى لصدى صوت يرن بين الجدران، صوت يأتي من بعيد ويشبه صوته ذاته. كان الصوت يقول:

– منذ مئات السنين أحلم بشخص واحد. شخص يتوه في طريق واحدة طويلة، يدخل بيتًا واحدًا مرتفعًا، يسقط من سطحه ليواصل السير. شخص يدخل من أبواب ويخرج من نوافذ، أو يدخل من نوافذ ويخرج من أبواب، يسير أعرج حينًا وأعمى حينًا، ينحرف ويسقط في نهر صغير، أو ينحرف ويسقط في بالوعة مكشوفة، أو يركض وراء شيء غير مرئي.

منذ مئات السنين أحلم بشخص ليس أنا، ولا يشبهني، ولا من عمري. لا هو صديق ولا عدو ولا قريب ولا بعيد. شخص لا يمت إلى واقعي بصلة، ولا حتى قابلته مرة واحدة في حياتي.

شخص أحلم به ولا أعرفه ولا يشبهني هو من يسكن أحلامي، كأنه استأجرها إلى الأبد، بعقد لا نهائي لم أوقّع عليه. شخص يوم أقابله سيخرج لي لسانه، ليس سخرية مني، إنما من أثر اللهاث في أحلام شخص آخر.

حين ارتدى عباءةً واضطجع على السرير، التفتَ في الحال إلى أن الجدار المواجه له يختلف عن بقية جدران القبو. كان الجدار الوحيد الأبيض في وسط جدران بُنية. بدا له في البداية قطعة من السحاب، غير أنه بتأمله اكتشف أنه أبيض مثل الحليب، وكان أملس فلا يشبه الجدران الحجرية الخشنة الأخرى. ظن أنه باب يؤدي إلى غرفة أخرى، لكن تعب الأيام والليالي الماضية دفعه ليرجئ تخميناته، وسقط في النوم كمن يسقط في بئر. وفي الحلم، رأى رجلًا يسير في طريق طويلة، لانهائية، يشق بحارًا وأنهارًا. رجلًا لا يعرفه ولا يشبهه، لكنه يسير في نفس الطرق التي سار فيها.

49

كان الجدار المواجه له مضيئًا.

في البداية ظنه حلمًا، إذ لم يكن من الممكن أن يأتيه صوت من أي مكان. لقد كان منعزلًا عن العالم بدرجة يستحيل معها أن يسمع حتى صوت الرعد، ولم يكن ممكنًا، بالتالي، أن تأتيه أصوات مألوفة، تشبه الأصوات المترددة في المملكة.

ظنه حلمًا، لأن السلالم التي قطعها حتى يبلغ تحت الأرض، حتى يبلغ هذا القبو، كانت ألف سلمة، ما يعني أنه ليس تحت الأرض فحسب، بل في عمقها بالذات.

ظنه حلمًا، لأن ولا صوت مهما كانت قوته بوسعه أن يخترق الباب الخشبي السميك، ليصل إلى أذنيه النائمتين ويحكي له أشياءً تحدث أو حدثت.

في البداية ظنه حلمًا، لكنه لم يكن كذلك، فالقبو المعتم كان مضاءً، وأشعة الضوء كانت تضرب في عينيه كضربات سوط متكررة. أشعة ضوء مصحوبة بأصوات، رغم ذلك كان يكذّب أن يكون ذلك حقيقيًا.

في البداية ظنه حلمًا، رغم أنه بعد قليل سيكتشف أنه الحقيقة.

50

ثم فتح عينه الوحيدة، عينه اليمنى بالتحديد. ورأى الحائط الأبيض وقد استحال مَندَلًا، مَندَلًا بعرض حائط، مَندَلًا يعرض أفرادًا يتحركون ويتكلمون ويصرخون ويركضون، في مشاهد متتابعة. يفكّر في أن المندل يرى الماضي، فهل سيكشف له هذا المندلُ الماضيَ أم سيروح إلى المستقبل. يفكر في أن المندل يكشف السرقة، فهل سيكشف هذا المندل أي سرقة. يفكر في أن ماء المندل شفّاف، يتكوّن فيه الأشخاص والأشياء على مهل، يسرّون بأسرارهم كأنهم مجبورون على الحكي، فأي عالم سيكتشف.

كانت أصواتهم قريبة وعالية، وكانت ملامحهم تتضح على مهل، حتى غدت شديدة الوضوح. وكانوا، أحيانًا، ينظرون نحوه من دون أن يروه، أو يرونه من دون أن يبصروه، ومن دون أن يوجهوا كلماتهم إليه. وكشأن المندل، كان يطلّع هو عليهم، بينما ينتظر، بأمل، أن يطلّعوا عليه. اختلج

قلبه حتى كاد يتوقف، وجحظت عينه الوحيدة كأنه يرى كابوسًا لا يمكنه الصحو منه، وارتجفت قدماه فعجزتا عن النهوض. لقد ظن في البداية أنهم يقفون على حدود الجدار بعد أن قوّضوه، ثم ما لبث أن التفت إلى مكان الأحداث فكان المملكة التي جاء منها ذاتها، نفس الميدان والبيوت والأرض الزجاجية، نفس الجبال في العمق وخرير الماء عند هدهدة أمواج البحر.

51

مرت برهة قبل أن يستعيد نفسه وينتفض. مرت برهة واقترب من الجدار ووقف أمامه وجهًا لوجه مشدوهًا. مرت برهة ومد يده إلى الجدار ليلمسه، فكان ناعمًا جدًا كالزجاج، ناعمًا كالزجاج وناعمًا كالماء، ولم يكن خشنًا مثل الجدران الحجرية الأخرى. ولبرهة وضع يده على الجدار الأبيض الأملس، ورآهم يتحركون وراء راحة يده من دون أن يشعروا بثقلها عليهم، من دون أن يكفوا عن رؤيته دون أن يبصروه. شرد الرجل، شعر بالعجز عن إدراك ما يحدث أمام عينيه. جلس على الأرض وفكّر كيف يمكن أن يرى ما يراه، كيف يمكن أن يحدث. تأمل الجدار الأبيض من مكانه المنخفض، شاهد أهل المملكة، هم أنفسهم، يعملون في وسط النهار، يتجهون إلى الحقول ويزرعون، ينظفون الشوارع بمكانس من الخشب، يرمون بصناراتهم في البحر وينتظرون أكل السمك. وفي الميدان، في وسط الميدان، شاهد الهرم

الرمادي، شاهد العين المرشوقة في الهرم الرمادي، والعين المرشوقة في الهرم الرمادي كانت تنظر إليه، كانت تبصره، كانت تحيي الحدقة الفارغة بغمزة. وكانت الأرضية حمراء، مكسوة بدمه ذاته، بدم عينه.

بعد قليل، سيكتشف الشيخ، من مكانه بالقبو، من جلسته على الأرض أمام الجدار الأبيض، من عمق ذهوله ذاته، أنهم غدوا تماثيل شمعية. تماثيل تنظر وتأكل، تسير وتنام، تتشاجر وتتضاجع. كلهم محض تماثيل، تماثيل شمعية انسحبت منها الحياة، ولم يتبق لها إلا الهيكل، الهيكل الخالي من الحياة وإن أوهمت بعكس ذلك.

52

كانوا بيضًا جدًا، كانوا بعيون زجاجية. كانوا يسيرون بنفس الطريقة لكن بخطوات بطيئة، كتماثيل شمعية. كانوا ينظرون بنفس الطريقة، بعيون غائمة، كنظرات تماثيل شمعية. كانوا حزينين، تائهين، كانوا يتلفتون حولهم، لكنهم كانوا يفعلون ذلك مثل تماثيل شمعية. وفي مشهد بعيد تلقي شجرة التوت بظلالها على امرأة جالسة القرفصاء، امرأة كانت شابة ثم شاخت بين ليلة وصباح، حتى غدت الآن محض عجوز ذابلة. الآن يتأملها كأنه يتعرّف في ملامح وجهها على وجه عاشره لزمن غير محدود. وفي الميدان، في وسط الزحام، في مرواح الناس ومجيئهم، يلمح ابنه يسير، يسير بخطوات مسرعة، كأنه متلهف على مكان، كأنه على موعد. ثم يركض، الولد يركض ويركض ومن بين المارة الذين يراهم في المشهد، ثمة حراس ثلاثة، يسيرون على غير هدى، كأنهم وجدوا أنفسهم فجأة في أرض غريبة. الحارس الأول، الذي

قاده إلى حيث يضطجع الآن، كان أكثرهم توهًا وحزنًا، ويبدو أنه تبدّل من حال إلى حال، إذ غدت ثيابه رثة بعد فخامة وبذخ، وبات حافي القدمين بعد نعال من جلد الخراف والماعز، وغدا ظهره أحدب بعد استقامة، غير أنه لم يكن الوحيد بهذه الحال، فالحارسان الآخران سارا على نفس هداه، أو ضلاله، كأن اللعنة حلت عليهم بالطاعة، أو كأنهم بحبهم للعاصي حلت عليهم العقوبة. هذا ما يبدو، لكن الحقيقة شيء آخر.

53

ارتجف قلبه وبكت عينه الوحيدة، وكانت دموعها كما السيل تشق طريقًا في وجهه وصدره وقدميه. حين استقرت الدموع في الأرض، صنعت حفرة ثم بئرًا، نظر إليها وهي تمتلئ، وكانت كلما امتلأت اتضحت ملامحه بداخلها، رأى وجهه ورأى كيف شاب. مد يده وغسل وجهه، فتساقطت من وجهه قطرات على هيئته، قطرات لها يدان وقدمان ورأس. ثم كانت القطرات تصنع سبلًا، تشق طرقًا داخل البئر، تشيد بيوتًا ومدنًا. ثم كانت القطرات تسير على قدمين وترفع رؤوسها، تحمل في يديها شيئًا أو تتحرك خالية. ثم كانت القطرات تبكي، وكلما بكت سال منها قطرات أخرى، لها نفس هيئتها، بقدمين ويدين ورأس، تسير في طرق وتشيد بيوتًا وتصنع مدنًا. رأى القطرات تتعانق وتتبادل القبلات، رأى القطرات تضحك ثم تبكي، وكانت ثمة قطرات أكبر من قطرات، فكانت القطرات الكبيرة تحمل

الصغيرة على كتفيها، أو تمسك بها بكفها، أو تربت على رأسها برقة.

ثم خرجت القطرات من البئر في هيئتها البشرية. ثم بدأت تتجول في القبو الذي اتسع، اتسع لمّا هدمت القطرات جدارًا، فتجلى وراء الجدار ممر، كأن الجدار لم يكن جدارًا بقدر ما كان ستارة. وراء القطرات، متتبعًا خطواتها السريعة، تقدم الشيخ بخطوات مترددة حتى حسم أمره بأن يلج أرضًا لا يعرفها، رغم أنه بمجرد ما تجاوز الجدار شاهد أرضًا كثيرًا ما تجلت له في أحلام يقظته. كان الممر طويلًا جدًا، لانهائيًا، لم يكن معتمًا ولا كان مضيئًا، وعلى جانبيه جداران مزينان كل واحد فيهما بتماثيل نصفية، أو برؤوس فحسب. تأمل في الوجوه كأنه يعرفها، غير أنه لم يميّز كيف يعرفها، كأنها وجوه مرت عليه في حياته، يعرف أصحابها بالنظر، لكنه لا يعرف من هم. في دهشته، شاهد القطرات، بعد أن اتضح أنها أجساد بشرية شفافة كالماء، تتحرك في المكان بألفة، كأنه مكانها منذ وُجِدت في الحياة، أو منذ وُجِدت وراء الحياة. وفي عمق الممر، حيث ينتهي مدى بصره ولا ينتهي الممر، ميّز تمثالًا لـ أبو العلاء المعري، كان تمثالًا من الممر لشيخ نحيف يرتدي عمامة على رأسه، لكنه كان مبصرًا، كان مبصرًا وينظر إليه بترحيب. قال بدهشة وبصوت هامس: سيدنا أبو العلاء! ثم لم يعرف كيف عرف الرجلَ من دون أن يرى له أي تصويرة سابقة. والتمثال هزّ رأسه في تواضع وابتسام، ربما في خجل.

54

قال الشيخ:

– منذ سنوات وأنا أريد أن ألقاك، كنت أود أن أسألك ما الجحيم.

أعرض أبو العلاء بوجهه، ثبّت نظره إلى الرؤوس والتماثيل النصفية، وبعد دقائق رد على السؤال:

– الجحيم أن تبصر، الجحيم يا شيخ ليس أن ترى، إنما أن تبصر، وهأنت الآن تبصر.

55

بخوف تسلل إلى قلبه، خوف من الوصول إلى نهاية الممر، قرر العودة إلى القبو، والاضطجاع على سريره. حينئذ رفع عينه وتابع ما يعرضه الجدار الأبيض.

كان الجدار نفسه رماديًّا، كانت ثمة ريح قد هبّت، هبّت وحملت ما حملت، هبّت وحملت من حملت، وخلّفت وراءها أشجارًا مكسورة، ونخلات متأرجحة، وأطفالًا يتطايرون لم تعانقهم الأرض بعد. توقف قلب الشيخ، دعا الله ألا يصيبهم مكروه، ثم التفت إلى غياب الحراس، غابوا من المشهد كأنهم لم يوجدوا أبدًا. كل ذلك والسيدة لا تزال جالسة تحت شجرة التوت، من دون أن يمسّها ريح، من دون أن تهتز.

ثم عاد الجدار أبيض كما كان، وبعد دقائق ظهرت المملكة من جديد، لكن اختفت المراكب وصنارات الصيد والأرض المزروعة والدكاكين،

غدت المملكة صحراء قاحلة. وتبدلت ملابس أهل المملكة حتى غدت خفيفة تشف أجسادهم البيضاء. وبدوا له كأنهم في زمن غير الزمن.

هل الجدار يعرض المملكة نفسها أم مملكة أخرى؟

ارتاب الشيخ للحظات ثم أتاه اليقين. هي المملكة وإن تبدل حالها، هي الهيئة وإن تبدلت الألوان. بالطبع لم يشعر بالتشفي فيهم لصمتهم، فكيف يتشفى في أهله وإن طغوا، إنما شعر بالحسرة أن غدوا كذلك، أن ركبوا باختيارهم مركب أمان في ظاهره، وفي باطنه الهلاك. وفي لحظة أدرك الشيخ أن سنواتٍ طويلةً يجب أن تمر حتى يدركوا أنهم جميعًا في مرمى السهام، وأن السهم لا يفرّق بين عالم وأمي، ولا بين رضيع وعجوز. تلقى الشيخ الفكرة بكثير من الصفاء، إذ علّمته الحياة أن الخطأ يجب أن يقع حتى يأتي التعلم، وأن البصيرة لا نكتسبها حتى نفقد البصر.

56

حينئذ ظهر السلطان. حينئذ ظهر الحراس برفقة السلطان. حينئذ ظهر المستشار الجديد على يمين السلطان. لكنهم لم يكونوا تماثيل شمعية. كانوا كما كانوا بثياب فخمة، بنفس الثياب التي يرتدونها، بنفس أعدادهم كاملة لا ينقصهم إلا ثلاثة حراس. وفي غمضة عين، شاهد الشيخ من مكانه بالقبو، من مكانه أمام الجدار الأبيض، انتشار الحراس في أرض المملكة، كانوا مئات، كانوا آلافًا. ثم شهدهم يحرثون الأرض من جديد، يشقون الجداول بحماس، وكانت سرعتهم لافتة، كأن الأوامر لم تكن بحرث الأرض فحسب، إنما بحرثها في وقت معلوم. ثم ظهر أهل المملكة، كانوا يسيرون على حواف الجدار الأبيض، على حدود المملكة، وكانوا يراقبون الحراس في حيطة، في حيطة أو في حسرة.

ثم نام الشيخ من التعب. وفي المنام جاءه طفل قبّله على جبينه وسلّمه أوراقًا أوصاه بقراءتها.

وبعد ساعات، إذ لا فارق بين ليل ونهار، فالضوء يدخل إلى القبو عبر ثقب، ضوء شمس أو ضوء قمر، صحا الشيخ بابتسامة على فمه، أو ببقايا الابتسامة التي أهداها إلى الطفل في المنام. وحين جلس التفت إلى كومة أوراق مرصوصة بجانب متكئه، فسحب الورقة الأولى التي حملت كلمتين لا غير: "**كتاب الأحلام**".

1 - في مارس من عام 1986 مات بابا. مات بابا ولم يكن له صورة منفردة، ولا حتى صورة يتيمة نرسلها إلى جريدة ننعيه فيها. لم يكن له صورة حتى نضعها عند السرادق بجانب اسمه كما كانت ترغب ماما. ولا صورة يتيمة تطبعها ماما لتضعها بجانب اسمه في شاهد القبر الرخامي، كما كانت وصيته في أيامه الأخيرة. وبالطبع، ولا صورة يتيمة نعلّقها في الصالة، أو تعلّقها هي في غرفة النوم، أو أضعها أنا في محفظتي، أو في ألبوم صور كبير لأشير إلى أبنائي، بعد عمر طويل، إلى الشبه بيني وبين جدهم الذي رحل عن الحياة وأنا لم أبلغ الثامنة بعد.

2 - لم يكن لبابا كذلك، وهذا ما اكتشفناه يوم وفاته، صورة واحدة معي، ولا صورة واحدة مع ماما، ولا حتى صورة زفافهما، رغم أن ماما أقسمت أنها تتذكر عشرات الفلاشات التي أعمت بصرها ليلة الزفاف بينما كانت تغمض عينيها حتى تحتملها مبتسمة. لكنها لم تتذكر، أو ربما تذكرت ونسيت أنا، أنها رأت تلك الصور، بينما تذكرتْ ضحكاتهما معًا على سرير غرفة النوم وهما يشاهدان النيجاتيف ويخمّنان من فيهما العريس ومن العروسة، وابتسمتْ وهي تحكي لي، وجثة بابا مسجاة على سرير متعته الفانية، كيف كانت ملامحها واضحة في مقابل ملامحه الشبحية في النيجاتيف. ثم اكتسى وجهها بسحابة حزن وهي تبدي استغرابها من كيف لم تنتبه أبدًا إلى غياب صور تسجّل لحظات حياتهما، السعيدة على الأقل، رغم شغف بابا المعروف بالتقاط الصور.

3 - بفضل شغف بابا، غدا البيت مكسوًا بصور لي وصور لماما تغطي كل جدران البيت وتصل حتى إلى الحمّام. شغف دفعه لتكريس حياته للعمل كمصور فوتوغرافي، ليس داخل "استوديو مراد" فحسب، بل ومصور متجول يلتقط صورًا في الشارع والجنائن والمطاعم والأفراح، لعشاق ولأطفال ولعائلات ولمناظر طبيعية، من دون أن يكلفه أحد بذلك، ومن دون أن يطلب أجرًا من أحد (وإن كان يحصل على أجر حين يطلب الزبائن صورهم). كان يتعرض أحيانًا لسخافات معروفة بمسمى انتهاك الخصوصية، أو الخوف من فضيحة ما، أو أن هذه الصورة قد تدمر عائلات وتخرب بيوتًا، لكنه لم يفهم أبدًا ما يقولون، إذ اللقطة الجميلة كانت تناديه كما النداهة، ولم يكن بوسعه غير الاستسلام لها. كان يقول إنه مثل طبيب نزيه مضطر إلى أن يطلّع على العورات لكنه مضطر أيضًا إلى التستر عليها وحفظ سرها. لا أعرف إن كان يبرر باقتناع أم أن هذه كانت وسيلته للدفاع عن ضعفه أمام لقطة مبهرة لا يريد أن يخسرها أو تذهب إلى العدم بدون أن يسجلها بكاميرته. لكن هذه السخافات لم تكن إلا طارئة، تقول ماما بينما تتطلّع إلى سرير بابا عبر باب موارب ترى من خلاله نصف جسده الأعلى المحجوب بملاءة بيضاء، مجرد هوامش على سيرته كمصور، بينما كان المتن ترحيبًا من الكثيرين، خاصة المراهقين، إذ كانوا أكثر انطلاقًا وأقل خوفًا. وبالإضافة إلى صورنا، كانت صور غرباء تزاحمنا على جدران البيت، غرباء صاروا من عائلتنا بدون أن

نعرف عنهم شيئًا. أطفال ومراهقون استحال بيتنا مستقرًا لذكرياتهم ربما من دون أن يعرفوا.

4 - كان بابا مسجى على سرير هو محطته الأخيرة في العالم، بينما أنا وماما نراجع الصور كأننا نراها للمرة الأولى، وننبش في مئات الألبومات بحثًا عن صورة وحيدة تضم وجهه وحده، أو حتى صورة ثنائية يمكننا قص نصفها ليكون هو بطلها. استمرت الرحلة نحو الماضي لساعات طويلة.

5 - أنا وماما على الشاطئ بملابس البحر نشيّد قلعة، وفي الخلفية امرأة جالسة على كرسي البحر وتبتسم للكاميرا، أنا نائم على صدر ماما الراقدة على كرسي البحر وتحيط بي بذراعيها، وفي الخلفية نفس المرأة تغمز بعينها اليسرى، ماما تحملني على كتفيها وتجري في الماء، وفي الخلفية نفس المرأة بجسد مغطى بالماء إلى رقبتها ووجه يتطلع إلى أفق بعيد. كل الصور على الشاطئ (وبحسب التاريخ المسجل عليها كنا في يوليو 1980، أي أني كنت في الثانية) كانت بصحبتنا نفس المرأة بملامحها المميزة: خمرية، بعينين واسعتين سوداوين، وشعر أسود كيرلي. أنا وماما كنا نشاهد الصور نفسها غير أنها لم تبد أي اهتمام بالمرأة التي تشاركنا كل لحظاتنا، إذ بالإضافة إلى صور الشاطئ، ظهرت المرأة، الجميلة واللافتة، في صور لنا (مؤرخة بـ يناير 1982) في حدائق وأمام بوابات مسارح وسينمات بوسط البلد، وفوق كَبارٍ تطل على

النيل. واللافت أنها كانت بصحبتنا في مركب شراعي صغير كفرد من العائلة، لكنها في تلك المرة كانت قريبة جدًا منا إلى حد الالتصاق، وإن تجنبت أن تنظر إلى الكاميرا وجهًا لوجه، ليس للتمويه، إنما لأن بوزات الصور، هذا ما أقوله الآن وأنا أتأمل الصور مجددًا بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على ذاك اليوم، كانت أكثر جمالًا ورومانسية: شمس برتقالية تغرب في الأفق على نهر ترتجف موجاته، وامرأة خمرية وجميلة تنظر إلى اللاشيء بجانب وجهها وفي خلفيتها بنايات أنيقة مضاءة بلمبات صفراء.

6 - ما يمنح الصورة، هذه الصورة تحديدًا، بُعدًا جماليًا آخر، هو أنا وماما المتلهفين على الكاميرا والمبتسمين لعدسة صماء ستُحوِّلنا إلى نيجاتيف ثم إلى بُلهٍ نبتسم إلى المتفرج علينا بعد أن نمر بمرحلة التحميض، في مقابل امرأة متعالية تقف خلفنا، لا تعير الكاميرا بعدستها الصماء أدنى اهتمام، وتنظر إلى أفق لا نراه نحن. أفق لا يراه أحد إلا هي والمصور.

7 - تجاهلت ماما سؤالي بعد أن ترددتُ في طرحه. كنا في غرفة النوم، بجانب جثة بابا المستريحة الآن والمحتجبة بملاءة بيضاء، جالسَين، أنا على الأرض وماما على كرسي قصير، نفتح الألبومات كمجرم أصابه الجنون بعد أن قتل، فقرر فتح بطن قتيله والتفتيش فيها عن شيء مجهول. لا أعرفها، قالت ماما مبديةً دهشتها من أنها لم تلتفت إليها

أبدًا. لم تقل ماما إنها لم تشاهد الصور من قبل، قالت لم ألتفت إليها أبدًا. هل لم تلتفت إلى وجود امرأة في خلفية الصور؟ أم لم تلتفت إلى أنها نفس المرأة في كل الصور؟ لم أسأل ماما أبدًا هذا السؤال، صدّقتُ حينها، وإن كنت فكرت أنها ربما لم تشاهد هذه الصور من قبل.

8 - بالإضافة للصور الأبيض في الأسود التي تغطي الجدران، عثرنا في ألبومات بابا على مئات الصور لأطفال ومراهقين من أعمار مختلفة وبصحبة عائلات وأصدقاء لم يسبق لنا أن رأيناهم، بعضها كان في بيوت تشبه بيتنا، وبعضها في منتزهات وأمام متاحف، وإحداها من فوق برج مرتفع يكشف من ورائه مدينة ذات جمال غابر غدت مع الزمن عجوزًا تداري تغضناتها بكريمات رخيصة. وفي كل الصور كان بابا، هذه المرة بابا، في الخلفية، يتطلع من مسافة بعيدة إلى الكاميرا، يحاول أن يقترب من أصحاب الصورة غير أنه يبدو، للأسف، متطفلًا عليهم. وعلى ظهر الصور عنوان بيتنا.

9 - ثمة صورة واحدة كانت برهانًا لا يقبل الجدل على معنى التطفل في الصور الذي وصلني من صور أخرى: رجل وامرأة وأبناء أربعة متدرجو الأعمار والأطوال، ورجل في الخلفية يشرئب برأسه، بعينين شاخصتين للكاميرا بلهفة من يخاف أن يفقد اللقطة. الرجل كان بابا، بعينيه المبتسمتين على الدوام، بنظرته الطيبة، وبشعور، ولو مزيف، بالزهو، حتى لو كان زهوًا بما لا يملك. يمكنني أن أتخيل ما حدث:

10 - أشارت الأم لمكان التقاط الصورة، مكان لا تواجه فيه العدسة أشعة الشمس، خلفية ناصعة بمنظر طبيعي جميل وسطه فيلا تبدو من بعيد كبيت ريفي، ومركب شراعي يسير على غير هدى في نهر واسع كأنه يطمح إلى الصعود للسماء المترعة بسحابات منذرة بمطر، سماء، لو تأملنا المنظر، للاحظنا أنها تتكامل مع النهر كأنهما قطعة واحدة، كأن البيت والشجرات والخضرة جزء من هذه القطعة، وكأن بابا يقوم بدور حارس ليلي لها. اختارت الأم المكان واصطفت العائلة في صورة عرضية: من اليمين فتاة بيضاء، طويلة ونحيفة، بذيل حصان تفاخرت به فوضعته على صدرها، تبدو في الثامنة عشرة، بجوارها الأم الأقصر بعدة سنتيمترات لكنها الأسمن بشكل ملفت، وعلى عكس ابنتها المتباهية بشعرها الناعم، كانت الأم محجبة؛ ثم ولدان بدا أنهما توأمان، ربما في الثانية عشرة؛ ثم الأب، طويل بشكل مفرط حتى أن جزءًا من المنظر الطبيعي خلفه توارى قليلًا، إذ أن الأب على طوله لم يكن عريضًا، وإن كان بكرش حاول مداراته بغلق زر البدلة الزرقاء. الأب يستريح بيد يمنى على أحد الطفلين، الطفل الأقرب للأم، وعلى يساره ابنة في السادسة عشرة تقريبًا، خمرية وبشعر أسود كيرلي، يبدو جسدها أكثر نضجًا من وجهها رغم أنها قصيرة إلى حد ما. أراح الأب ذراعه اليسرى على كتفها، فشبكت أصابعها بأصابعه، وبينما تظاهرت بأنها تنظر إلى أبيها، كانت الوحيدة التي تنظر إلى بابا وتبتسم. لا بد أن ثمة ابنًا خامسًا هو من التقط الصورة،

هذه افتراضية لا تنفي افتراضية أخرى هي الاستعانة بأحد المارة. حدسي يميل إلى الافتراضية الأولى، ثمة فراغ بين الأب والابن لا بد أن يشغله الابن المصور، إذ حاول الأب ملأه بفتح ساقه اليمنى قليلًا من دون أن يمحوه. الابن الغائب ربما يكون الابن الأكبر، إذ يبدو أن الأب تجاوز الخمسين بقليل، والأم في منتصف الأربعينات تقريبًا، ما يسمح بسهولة أن يكون لهما ابنًا في العشرين، وأن يؤدي هذا الابن دور المصور في هذه الحالات، وأن يختفي من الصور، لأن المصور كان يجب أن يختفي من الصور. مثله مثل بابا الذي، لكونه مصورًا، كان يجب أن يختفي من الصور تمامًا.

11 - في خلفية هذه الصورة، التي تبدو غير مهنية على الإطلاق، إذ جاءت شبه مهزوزة وخالية من ضبط الزوايا، كان بابا شابًّا مكتملًا في الخلفية، في الثلاثينيات، مطلًّا من فوق رأس الأم بجانب وجهه، وجسده النحيف يداريه جسد الابنة الكبرى الطويلة. المتطلع إلى الصورة، بتأمل، يمكن أن يفهم أن الأب رفض عرض بابا بتصويرهم، ربما لظنه أنها ستكون صورة غالية، وربما لأنها صورة في الشارع ولم يرغب الرجل في أن يربط نفسه بمصور يجب أن ينتظره حتى يعود من تحميض الصورة، وربما لأنهم خرجوا من البيت بكاميرا فوتوغرافية ليلتقطوا صورهم بدون تطفل من أحد. وربما، وهو احتمال مرجح: لم يعرض عليه بابا أن يؤدي عمله الطبيعي، وأراد برغبة لا تقاوم أن يظهر في صورة عائلة لا يعرفها. وبالطبع لم يستأذن رب الأسرة، إنما تصنع بأنه

يتأمل النيل وفي لحظة اللقطة اقترب واشرأب بجانب وجهه، وبعينين مصوبتين إلى العدسة. لكنه بالتأكيد طلب منه، بعد التقاط الصورة، أن يرسل له نسخة على عنوان الاستوديو المدوّن على ظهر الصورة وبتاريخ يناير 1970. واستجاب الرجل، ربما بضيق، لطلب رجل لا يعرفه. ولسبب لم أكن أعرفه، احتفظ بابا بالصورة في ألبوم بالبيت، وليس بالإستوديو، ولم يعلّقها على جدار كما علّق صورًا أخرى، فكان مكانها، أو مقبرتها، ألبوم صور في قاع خزانة الملابس.

12 - كانت ماما تراقب الصور كمن يرنو إلى ماضٍ بعيد لا يمكن تغييره، لكن يمكن، بالطبع، الشعور بالأسى عليه. هل كان أسى أم تصنعًا؟ ما الذي استحضرته ماما في تلك اللحظة؟ يمكن تخيل أنها استحضرت تاريخًا طويلًا مع بابا، ربما بدأ بصورة التقطها فظل من ساعتها مجرد مصور. وربما جاء الزواج كفعل طبيعي للتكاثر، هي من أجل الإنجاب، وهو من أجل العثور على عائلة يرافقها في الصور، أو آخرين يصورونه. لم تفلت من ماما عبارات كثيرة، من حين لآخر كانت تلتفت إلى الملاءة التي رسمت جسد بابا، ربما غير مصدقة، وربما كما خطر لي حينها، سعيدة، أو على الأقل بشعور مَنْ تخلصت من عبء لم أكن أعرف ما هو.

13 - على بعد ناصيتين من البيت، كان استوديو بابا في الدور الأرضي ببناية قديمة، بلافتة تحمل اسمه وحده، من دون لقب. لافتة قديمة

ومغبّرة كأنها من بدايات الكون. عندما فتحت ماما الباب كانت الصالة الـ 4x4 متحف صور بأحجام متعددة، ببراويز خشبية، ترنو منها وجوه لم أعرفها أبدًا. وفي خلفيات صور أخرى معلقة على باب غرفة التحميض كان بابا يملأ فراغًا. لم يكن يطل برأسه فحسب، كما في صور سابقة، بل يطل أحيانًا بجسد كامل لكن من مسافة بعيدة، مسافة تفسر أنه كلما رأى أحدًا يستعد للتصوير، كان يتخذ الوضع الذي يبدو فيه غير مبالٍ، لكنه يضمن له الطلوع في الصورة. أحيانًا في نفس الوضع الذي كانت تتخذه المرأة الخمرية ذات الشعر الكيرلي التي رأيناها في خلفية صور كثيرة في ألبومات البيت، بنفس التعالي المتصنع، أو الحقيقي، بنفس الاحتياج الخفي، أو الاستغناء. وعلى المكتب، من خلف لوح زجاجي متر في نصف متر، تراصت صور كثيرة جدًا ملتصقة ببعضها من دون فراغات، وفي المنتصف تمامًا نسخة ثانية، بالإضافة لنسخة البيت، من صورة بابا مع عائلة الرجل الطويل والمرأة السمينة، يطل هو من وراء رأس الأم بجسد متوارٍ خلف جسد الابنة الطويلة الكبرى. الابنة الكبرى التي عرفتُ، في مساء يوم وفاة بابا، أنها ماما. وهي الصورة الوحيدة التي جمعتهما، أو التي تبقت من الصور بحسب رواية ماما، برغم خمسة عشر عامًا من الزواج (تزوجا عام 1971). وخلف باب الإستوديو، الذي انتبهتُ إليه بجلوسي على كرسي المكتب، كان ثمة صورة كبيرة للمرأة الخمرية ذات الشعر الكيرلي وهي تحمل طفلًا رضيعًا وتداعبه، أنفها على أنفه.

14 - الطفل، بتأمل الصورة قليلًا عند اقترابي منها بعد سنوات، كان أنا.

15 - برغم كل الصور التي كست جدران البيت والاستوديو، لم يظهر قبل موت بابا أي صورة أخرى لعائلة ماما: لا جدي ولا جدتي، لا خالاي التوأمان ولا خالي المصور، (لكن خالتي الوحيدة، الخمرية ذات الشعر الكيرلي، ظهرت في صور أخرى مختلفة تمامًا، كانت قد هجرت مراهقتها الأولى وباتت امرأة شابة ومكتملة). ولم أرَ أيًا منهم في حياتي. ولأني لم أعرف عائلة لبابا، بدا لي الأمر طبيعيًا، أو لم يشغلني من الأساس.

16 - عادة لا نعرف ما ينقصنا قبل أن نمتلكه، أو قبل أن نراه عند الآخرين فنتعرف على النقص. هذا هو المعنى الحقيقي للحقد، ولم أكن قد عرفته.

17 - أسئلة طفولتي لم تتجه لجذوري، اتجهت تحديدًا لعدم امتلاك أخ، وهو سؤال لم أعرف له جوابًا أبدًا، ورغم أن ماما تحدثت عن الاهتمام بي وتكريس وقتها لي وحدي، بدا لي ذلك أكذوبة. إذ لم تكرس لي وقتها قط، وكان يتحتم عليّ أن أقضي نهاراتي مستمعًا لمكالماتها التليفونية الطويلة، أو ملهيًا في لعبة الأتاري باصطياد الطائرات. كل وقت كنت أقضيه في غياب بابا لم يكن إلا انتظارًا لعودته. عودة تشبه حياةً تهبّ على موت. بصيص ضوء على ظلام. كل هذه اللحظات كان يسجلها بالصور، كأنه يسدد دينًا، بينما يبقى هو خارج الكادر.

18 - الطريق من مدخل المقابر حتى مقبرة بابا استغرق عشر دقائق سيرًا، وأنا كنت أركض وراء النعش لألمسه بأطراف أصابعي، بينما أتلفتُ حولي لأرى أن كل الصور التي التقطها بابا وكان مصيرها جدران البيت والإستوديو تجسدت في المشيعين. غدوا بشرًا من لحم ودم، يتحركون ويبكون، الحزن العميق يخبئ وجوههم ويمنحهم أعمارًا أكبر من أعمارهم. وفي آخر الحشود، متشحةً بالحزن والسواد، رأيت المرأة الخمرية الجميلة ذات الشعر الكيرلي من بين فراغات الأجساد. كانت المرأة تسير كمن يعاني من قصور ذاتي، لا تنظر، كعادتها في الصور، نحو العدسة، إنما تراقب فراغًا لا يراه أحد سواها، باستثناء المصور الذي غدا الآن جسدًا بلا روح.

19 - داخل المقابر مررنا بأرض ترابية، كنت أجر قدميّ فيها بصعوبة من يسير داخل بحر، بينما كانت خطوات المشيّعين السريعة تثير عاصفة اختفت وراءها المرأة الخمرية. اختلط التراب بدموعي، وتخيلت صورتي على هذه الحال لو خرج بابا من النعش وصوّب عدسته ناحيتي. ستكون صورة حزينة بالتأكيد، لكن ما سيمنحها حزنًا أكبر أن الخلفية، رغم الحشود المتكاثرة كلما تقدمنا خطوة للأمام، لن يظهر فيها إلا المرأة الخمرية بشعرها الكيرلي المغبّر الآن.

20 - بوصولنا إلى قبر بابا، لأرض جسده الأخيرة، سأل عني، عن ابن المتوفَّى، رجل عجوز بصوت جهوري. تقدمت خطوتين واتبعته، كان

يحمل بيدٍ دلوًا ممتلئًا بالماء، وباليد الأخرى قنديلًا. نزلنا ألف درجة، وأمام باب قديم من ضلفة واحدة وقف ليخرج مفتاحًا نحاسيًّا كبيرًا، وأنا أنتظر. فتح الباب ونادى حتى ينزلوا بالنعش، وتقدمنا نحن نحو القبر. كانت غرفة معتمة أضاءها التُربي بقنديله، وأمرني بأن أملأ الإبريق وأرش الماء على الحفرة. أثناء ذلك، هبط أربعة رجال بالنعش، أخرجوا بابا برفق ووضعوه في الحفرة. ومن خلف الكفن الأبيض الشفاف، كان بابا يطل عليّ طلته الأخيرة. كان يلتقط لي آخر صورة من وراء الموت. وقبل أن يهيلوا عليه التراب، ظهرت المرأة الخمرية من العدم، وأخرجت من حقيبتها كتابًا كبيرًا، عرفتُ أنه ألبوم حين فتحته، وسحبت منه صورة كبيرة لعائلة، ووضعتها على صدر بابا. في الصورة، كانت فتاة مراهقة وخمرية بشعر كيرلي تمسك بأصابع أبيها المدلاة على كتفها الأيسر بينما تنظر بابتسامة لرجل ثلاثيني لا يظهر منه إلا رأس مشرئب ينظر للعدسة ويبتسم، ابتسامة لن تتكرر أبدًا في أي صورة أخرى.

21 - جلسنا، أنا والمرأة الخمرية ذات الشعر الكيرلي، بجوار جثة بابا المسجاة الآن على سريره الا بدي، بينما خرج التُربي مع الأربعة رجال وتركوا لنا القنديل.

22 - في حقيبة كتفها، كان ثمة عشرة ألبومات ومن الحجم الكبير. وضعت المرأة، وهي تنظر إلي بعينيها السوداوين اللامعتين، الألبومات كلها

على الأرض، بيني وبينها، وتصفحنا، وأنا في ذهول، كل الصور.

23 - تسعة ألبومات كانت مخصصة لبابا وحده. بابا المبتسم وهو جالس في المركب الشراعي، بابا المتأمل وهو ينظر إلى القاهرة من فوق البرج، بابا المتوتر وهو يعبر الزحام كأنه يشق طريقه نحو مستقبل يصعب الوصول إليه، بابا الشارد وهو يدخن وينظر إلى أفق لا يراه أحد إلا هو والمرأة الخمرية ذات الشعر الكيرلي التي التقطت له الصور. عشرات الصور، مئات الصور لبابا، منذ كان في الثلاثين وحتى موته، صور تجمع كل حالاته من فرح لحزن لقلق لغضب. وفي الألبوم الأخير، الألبوم العاشر، ثمة صورتان لي وأنا رضيع تحملني فتاة في بدايات شبابها، ستصير بعد ذلك مجرد المرأة الخمرية ذات الشعر الكيرلي، وستظهر في ألبومات بيتنا واستوديو بابا كامرأة غريبة في خلفية الصور. بقية صور الألبوم الأخير خصصها بابا لها وحدها، خمسون صورة تقريبًا في أماكن مختلفة وأوضاع مختلفة، ورغم أنها احتفظت بجمالها، فإنها لم تعد الفتاة التي تمسك بأصابع أبيها المدلاة على كتفها الأيسر وتنظر لبابا مبتسمة، ولا هي الأم حديثة الولادة التي تحمل رضيعها بين ذراعيها وتداعب أنفه بأنفها. ستصير هي، لكنها امرأة أخرى.

24 - بدون اتفاق بيننا، أو باتفاق عقدته عيوننا من ورائنا، نهضت أنا وخالتي (ماما الحقيقية)، ونثرنا عدة صور لبابا على جثته المسجاة في مثواها الأخير، وحملنا بقية الصور والألبومات وخرجنا من القبر، تاركين

القنديل مضاءً ليسلّي بابا في وحدته. أغلقنا الباب الخشبي ذي الضلفة الواحدة، وصعدنا ألف درجة. كان التُرَبي في انتظارنا بشاهد القبر الرخامي، شاهد يحمل اسم بابا وتاريخ ميلاده ووفاته، وصورته. صورته وهو يتطلع مبتسمًا ومشرئبًا برأسه من خلف جدتي القصيرة والسمينة، بينما كان جسده متواريًا خلف جسد ماما (التي غدت خالتي منذ هذه اللحظة، خالتي البيضاء والطويلة)، وبينما ينظر للعدسة تنظر إليه ماما الخمرية ذات الشعر الكيرلي، مبتسمَّة وهي قابضة على أصابع جدي. صورة أبدية.

25 - لو كان بابا حيًا الآن، لالتقط لخالتي (التي كانت زوجته، وأمي قبل موته كما ظننت لسنوات) صورةً من ظهرها وهي تنزوي بين المقابر تجر قدمين ثقيلتين، مثيرة عاصفة ترابية خلفها، ومختفيةً للأبد من حياتي. ولالتقط لنا، أمي الحقيقية وأنا، صورة أخرى. صورة لن أعود فيها إلى البيت يتيمًا فحسب، إنما بأم أخرى غير التي خرجت بها.

57

كان الجدار الأبيض يعرض عرضًا عسكريًّا، التفت إليه الشيخ بفم مفتوح. لقد تزايد عدد الحراس والجنود بشكل لافت، ما جعله يظن أنه تجنيد إجباري. وكان محقًّا، إذ بات لهم زي موحد وقامة شبه موحدة، كأنهم مصقولون في قالب واحد. وبينما كانوا يستعرضون قوتهم بالسيوف والجياد، بالأقواس والرماح، بالصدريات والخوذ، لم يكن لأهل المملكة أي وجود، باستثناء السيدة العجوز الجالسة تحت شجرة التوت، ومن آن إلى آخر كان ينضم إليها ابن الشيخ ثم ما يلبث أن يختفي.

58

تجول الشيخ في القبو وبدا له واسعًا ورحبًا على عكس ما ظن. هل كان واسعًا منذ البداية ولم يلتفت إليه؟ أم أن الوسع والضيق عملية عقلية غير خاضعة للمقاييس الهندسية؟ اقترب من البئر وشرب، بَرَكَ كما يَبرَك الجمل وشرب، شرب بيديه بعد أن صنع منهما مجرىً مائيًا بين مرتفعين وصب الماء في فم جاف. ثم رفع رأسه إلى الجدار الأبيض وشاهد ما يمنحه له الجدار الكاشف، أو ما سمّاه بالمندل. سكان المملكة لا يزالون مختفين عن الأنظار، والحراس والمجندون قد انتشروا الآن في المملكة كافة. وتحت شمس تملأ كل الأركان، فتح الحراس متاجر ودكاكين، وسلّموا المفاتيح للمجندين، ثم انتقلوا بكتائب أخرى إلى الأراضي الزراعية على أطراف المملكة، وخصصوا لكل مجموعة جنود قطعة أرض.

59

الكائنات الشفافة كانت تسير في القبو، كانت تقترب من البئر لتشرب، كان يعوزها العودة من آن إلى آخر إلى النبع الذي خُلقت منه. ورغم أنها كانت تبدو غير مشغولة بالشيخ ولا الحديث معه، فإنها كانت تعود إليه كما يحن الرجل إلى رحم أمه. ومن آن إلى آخر كان أحدهم يلتفت إليه، يلتفت كقطرة تبحث عن ماضيها في البحر. ثم انتقلت الكائنات إلى الممر الواسع واللانهائي. وسار وراءها الشيخ كمصير محتوم. هذه المرة كان المعري يتحرك من ثباته، وكان مبصرًا على عكس ما ظن الشيخ. وهذه المرة كان المعري من اقترب منه، وربت على كتفه اليسرى بحنان. وهذه المرة أخبره المعري "كنتُ أعمى لذلك كنت بصيرًا، والآن صرتُ مبصرًا، لكن بصر الآن ليس إلا سَمَلة من البصيرة". ثم أخبره المعري "وأنت كنت مبصرًا، لذلك لم تكن بصيرًا، والآن صرت بصيرًا بحدقتك الفارغة. الآن ستسترد بصيرتك التي فقدت يوم ولدت". ثم أخبره المعري وقال:"وعينك التي فقدت ستُرَد إليك، ستُرد كسملة من البصيرة".

60

أغمض الشيخ عينه اليمنى، وسار كالمنوّم مع المعري في الممر الطويل.

في مكان ما من الممر، وعبر بصيرة تنطلق أيضًا من عين مفقودة، رأى الشيخ نفسه جالسًا مع السلطان وحشد من العلماء والوزراء، واستمع لحديث كان قد سمعه من قبل غير أنه لم يبصره. كانوا يوجّهون إليه اتهامًا بالكفر والزندقة، غير أن الحديث كان يبدو حميميًّا فلم يشعر بالغدر، وكان ينفي التهمة عن نفسه في هدوء وسكينة. لكنه الآن لا يبصره كما رآه من قبل، الآن يبصر كيف كانت تُحاك المؤامرة، الآن يبصر غمزات الأعين، وإيماءات اليد الخفية، الآن يبصر النية الجلية في قتله. ثم يبصر نفسه مسحوبًا بيد حراس يقطعون به طريقًا طويلة ليبلغوا السجن. ثم يبصر نفسه فوق تبّة عالية، ثم يبصر نفسه والسهم يخترق عينه اليسرى، ثم يبصر مخطوطاته وهي تحترق ويهرب منها الدخان، ثم يبصر نفسه سجينًا بدون حول

ولا قوة، سجينًا بدون رغبة في الكلام والحديث، بدون رغبة حتى في النظر إلى أحد. وفي السجن يقعد في ركن، ومن الركن يبصر زوجته وابنه. لقد جردهم السلطان من كل شيء، وفي السجن يدخل عليه حراس لا يعرفهم ولا يرى وجوههم، حراس يبصرهم وهم يحملونه على أكتافهم ويخرجون به من السجن. ويبصر الحراس وهم يحرقونه حتى اسود جلده وحُرق شعره. ثم أبصرهم وهم يعيدونه، لا إلى السجن، إنما إلى القبر.

61

- لكني لست ميتًا ولا في قبر يا مولاي أبو العلاء!

- كنتَ ميتًا وصرتَ حيًّا. كنتَ أعمى وصرتَ بصيرًا.

62

– هل تريد مواصلة السير يا شيخ؟

– نعم أريد. لكن قل لي يا مولاي أبو العلاء، هل عاقبوني بكتاب "روضة التعريف في الحب الشريف"؟ أم بمخطوط المختفين في سجون السلاطين؟

– الأشياء ليست كما تبدو، وليس أسهل من خلق الذرائع. لكنك ستعرف ذلك بمفردك، بالبصيرة وحدها ستعرف. أنت الآن في مكان الكشف. أنت الآن في مكان الرؤية والإبصار.

63

واصل الشيخ السير مع المعري، كان الممر طويلًا، كان مثل متاهة يتشعب منها متاهات صغيرة في شكل ممرات وحارات وشوارع، متاهات صغيرة مستقيمة حينًا وثعبانية حينًا، متاهات من حجر جيري قديمة وأرضية من حجارة بازلتية، وسقف مفتوح على سماء زرقاء. وفي أحد الممرات الصغيرة وقف المعري وأشار بيده. رنا الشيخ إلى حيث تشير السبابة، واقترب ليرى المشار إليه. أبصر بيتًا متشعبًا من ممر صغير، وبالبيت أبصر غرفةً، وبالغرفة أبصر شابًا يبدو في الأربعين، يرتدي ثيابًا لم يرها من قبل، تنتمي إلى زمن لم يصل بعد، ويرتدي نظارة نظر، يجلس إلى مكتب وأمامه أوراق قديمة جدًّا شديدة الاصفرار، وأمامه أوراق جديدة لا بد أنه من خطها بيده.

64

- من هذا الرجل يا مولاي؟

- هو أنت.

- كيف هو أنا وليس بيننا تشابه؟

- لا يغرنك الظاهر، انظر إلى العمق يا شيخ.

- كيف هو أنا إن كان هو يأتي من زمن غير الزمن، يكتب بقلم غير القلم، فوق ورق غير الورق، يرتدي ثيابًا لم أرها من قبل؟

يبتسم أبو العلاء ساخرًا، كعادته:

- انظر لتبصر.

65

اقترب أبو العلاء من الشاب الجالس إلى مكتبه، ومن ورائه الشيخ بخطوات مترددة. وقفا خلف الشاب في تعجب من مسكة القلم والخط الأزرق. لم ينظر إليهما الشاب وإن شعر بوجودهما، كان منهمكًا في كتابة أوراق، دفعهما فضولهما، ولم تمنعهما أخلاقهما، من قراءة ما بدا غلافًا لكتاب، دُهِش الشيخ ونطق: "كتاب الأحلام"، وقال لأبو العلاء إنه نفس الكتاب الذي أقرؤه في قبوي، وشرعا في القراءة معًا:

26 - نمتُ وحلمتُ بـ ليلى، كانت تخرج من قبو تحت الأرض، بمحجرين فارغين تنظر بهما إلى أفق خالٍ من البشر، تنظر بهما إلى صحراء تغوص فيها قدماها في وقت الغروب، تنظر بهما إلى رامز وهند القادمين في مواجهتها فوق جسر يربط حقلًا زراعيًا بالصحراء. كانت ليلى عارية تمامًا إلا من جلدها، وكان رامز ببنطلون وقميص ممزقين كأنه حديث الخروج من مشاجرة، وبعين يمنى واحدة وحدقة يسرى خالية، على عكس هند التي كانت بعينين سليمتين، لكنهما زجاجيتان، لكن ثقبًا في جبهتها يشكّل دائرة لدم متخثر، وكانت عارية في نصفها الفوقي. كانت ليلى تخرج في استقبالهما لكنها لم تتوقف أمامهما في نقطة اللقاء، إذ عبرت من جسد رامز في الأرض الرملية وواصلت سيرها، انتفض رامز بدون أن ينتبه إلى وجودها، بينما كانت هند تتلفت حولها، تائهة، ثم ينزلان إلى قبو ليلى، على ألف سلمة تؤدي إلى باب خشبي ضخم، عندما يبلغانه تفتح لهما ليلى نفسها بثياب أنيقة ومهندمة وبعينين سليمتين مبتسمتين.

27 - حين يدخلان أصحو أنا على صوت صريخ، كانت البطلة في فيلم أجنبي لم أنتبه إلى عنوانه تصرخ بكل طاقتها وتركض في ممرات طويلة متاهية، كل ممر يؤدي إلى تقاطع ممرات ضيقة ومتمددة، كأن الفيلم كان استكمالًا للحلم، أو تفسيرًا له.

28 - في الحلم، كانت ليلى بوجه طفولتها النضر، حتى وهي تائهة في الصحراء

كانت ناضرة. وحين فتحتْ لهما الباب كانت بعينين سليمتين، عينين لامعتين، عينيّ طفلة الخامسة حين عرفتها للمرة الأولى.

29 - عرفتها ذات يوم بعيد، حين قلت لماما أريد أن أعرف من أين يأتي الصوت من المنور، وقالت لي من الدور الثالث، أسفل شقتنا لكن في الشقة المواجهة، وحينها رفعتني ماما فوق حوض المطبخ لأتطلع إلى مطبخ الجيران عبر نافذة صغيرة، وهناك، كانت ليلى جالسة على كاونتر المطبخ الخشبي تحدث أمها بطلاقة لم أعرفها طوال حياتي. في هذا المشهد لم أر إلا بانوراما عامة لوجهها يغطيه شعر أسود كثيف مقارنة برأسها الصغير، وحين رأت ماما اهتمامي، اصطحبتني معها في المساء وطرقت باب جارتنا الجديدة بذريعة التعرف وإكرام الجار.

30 - حينها رأيتُ ليلى، رأيت عينيها الجميلتين واللامعتين، سمعتها وهي تتكلم بكلمات منمقة وذكية تسبق سنها، بمخارج حروف سليمة تمامًا، فظل صوتها بنطقها للحروف محفورًا في ذاكرتي. في تلك السنوات، كنت أعاني من مشاكل كبيرة في النطق، في النطق وفي التعبير عن ذاتي، ما دفع ماما لحملي لأخصائي تخاطب قضيت في عيادته ساعات طويلة، وكانت نصيحة الأخصائي أن أدوّن ما أريده بالكتابة لحل مشكلة التعبير عن الذات، بينما بقيت معه لساعات أتدرب على نطق الحروف وفتح الفم ورفع اللسان، قضيتُ ساعات طويلة من الانتظار في العيادة، في الملل والضجر والخوف، وساعات مع الأخصائي نفسه في محاولات

لم تبد لي مجدية بل ومحبطة لأكون، ببساطة، مثل بقية الأطفال في سني، مثلهم في شيء ولدوا به ويفعلونه بدون أدنى مجهود.

31 - في تلك الأيام، ولغياب بابا منذ ساعات الصباح الأولى في عمله، في التجوال في الشوارع بكاميرته أو وجوده في الإستوديو للتصوير أو تحميض الصور، كنت أقضي الوقت الأطول مع ماما، وكان المطبخ مكان صحبتنا. ومن المطبخ كان صوت طفولي يأتيني عبر النافذة الصغيرة، صوت ناعم وواضح، صوت بحروف وكلمات شديدة الصفاء، صوت في نفس سني تقريبًا، صوت يقول كل شيء، صوت يحكي أحلامه ويعبّر عن مخاوفه، صوت يطلب ما يريد من طعام وشراب واستحمام. صوت سيغدو، مع مرور الأيام، جزءًا من تاريخي ذاته، من وجداني. صوت هو صوتي، اعتبرته صوتي.

32 - في تلك الأيام، لم تدرك ماما في البداية سر التصاقي بالمطبخ في ساعات الصباح، لم تعد مجرد زيارة عابرة أطل فيها عليها وهي تعد لنا الإفطار وتبدأ في إعداد الغداء ليكون جاهزًا لوضعه على النار أو في الفرن عند اقتراب ساعة رجوع بابا للبيت. لم تعد مجرد زيارة عابرة لأني اكتشفتُ في المطبخ بابًا سريًا يؤدي إلى الحياة، هذا الباب كان نافذة يعبر منها صوت ليلى، وهذا الصوت كان يحدد لي مساراتي اليومية.

33 - ومن مكاني على كاونتر المطبخ الخشبي، كنت أردد وراء ليلى ما تقوله، كنت أحاول الإمساك بنبرتها، النطق بنفس طريقتها، طلب نفس

الأشياء التي تطلبها، كأني بذلك سأكون مثلها، كأن ما تفعله هو السبب في فصاحتها وتفوهها. وكانت ليلى، يوميًا، تحكي لأمها حلم الليلة السابقة، تحكي شاردة أحيانًا ومنفعلة في أحيان أخرى، وفي كل الأحوال كان صوتها يصلني بنقاء كأنها تحكي لي في أذني.

34 - من هنا ارتبطت حياتي بالأحلام، من هنا ارتبطت حياتي بأحلام ليلى، ليلى مدت لي طرف الخيط وأنا أمسكت به، فصارت الأحلام سرّنا. هكذا بدأت أحكي لماما أحلامي كل صباح، وكانت ماما، مثل أم ليلى، تسمع وتعلّق فقط لأستمر في الكلام، لكني لم أكن غزيرًا في الأحلام مثل ليلى، وحتى أجاريها، وحتى لا أحبط ماما، كنت أؤلف حكايات على أنها أحلام، وكلما ألّفت كنت أقترب أكثر من ذاتي، وكلما ألّفت كانت ماما تكتشف الحكاية، كانت تعرف الفارق بين الحلم الغامض والحكاية المرتبة، بحسب ما عرفت بعد ذلك.

35 - ومع حكاية الأحلام بدأت أتعلم الغوص في ذاتي، والإمساك بالمشاهد العابرة. ثم مرت أيام كثيرة قبل أن أسأل ماما أن أرى صاحبة الصوت، فعثرتْ ماما على طريقة مناسبة لتخلق لنا صداقة مع جيراننا الجدد، ولتسحبني من الوحدة التي كانت سببًا، بحسب ماما، في تأخري في الكلام، فكانت بداية علاقتي بـ ليلى.

36 - ورغم أني واظبت على زيارة أخصائي التخاطب لمدة عامين، في جلسات أسبوعية لم تنقطع أبدًا، بدأت خلالها الكتابة بخط سيئ

وأخطاء متوقعة في مثل هذه السن، وبدأت خلالها أتراجع عن خوفي من الكلام واعتباره وسيلة للتعبير عن ذاتي، إلا أن ليلى، الطفلة ليلى، هي من دلتني على الطريق وسارت معي، فباتت تصب كل أحلامها ومخاوفها في بحري، وأنا كنت موجة تنصهر مع هذه الأحلام والمخاوف لتنتج أحلامًا أخرى ومخاوف أخرى.

37 - وفي الحلم، حلمي أنا، كانت ليلى تفتح الباب الخشبي لرامز وهند وتستقبلهما بنفس العينين اللامعتين، حتى لو كانت ليلى، في الواقع، صارت ميتة بحدقتين فارغتين.

66

شعر الشاب بوجودهما من دون أن يراهما، كأنهما طيفان، كأنهما شبحان، كأنهما روحان. نهض من مكانه بعين باكية، بينما كانت عينه اليسرى، ذات الحدقة الفارغة، تبصر حركة في البعيد، حركة لجسدين شفافين، جسدين هما جسدا أبو العلاء والشيخ. نادى الشاب عليهما، فالتفت الشيخ، حيّاه بتحية بيده، بينما أمره أبو العلاء أن يواصل سيره، ألّا يلتفت. حينها، كلمح بالبصر، شاهد الشيخُ الشابَ يودّعه بيد بينما يسير بظهره نحو نافذة تطل على شارع، وكان الشارع مترعًا بجنود يرتدون زيًّا موحدًا، وكان الشارع مترعًا بدبابات. الشيخ لم يعرف ما هذه العربات، لكنه خمّن.

67

ما ظنه الشيخ مجرد تماثيل أو رؤوس تماثيل معلّقةً على الحائط، لم تكن كذلك. كانوا مجموعة من البشر يتطلعون إلى الممر عبر نوافذ بيوتهم. نوافذ صغيرة يتطلعون منها على شارع، نوافذ يقتلون من خلالها أوقات فراغهم أو يشمون هواءً آخر غير هواء البيت. تأكد من ذلك حين سمع تأوهات امرأة، وحين دقق النظر، لاحظ أن جدران الممر ليست جدران مصمتة، إنما جدران لها أبواب، لها نوافذ وشرفات، وخلف الجدران، لا بد أن خلف الجدران، رجال ونساء وأطفال.

68

اختفى أبو العلاء من دون أن ينتبه الشيخ، فقرر أن يواصل السير وحيدًا. انحرف يسارًا بعد ما ظنه نهاية الممر، كان تقاطع طرق فاختار اليسرى دون أن يعرف السبب. على ناصية أحد الشوارع، أبصر فتاة نحيفة ورقيقة تتحدث مع شابين من عمرها تقريبًا. حدس أن هذه الفتاة قد تكون ليلى المحكي عنها في كتاب الأحلام، وصدق حدسه، إذ اقترب ومر بجوارهم، وسمعهم ينادون بعضهم بعضًا باسم ليلى وهند ورامز. أبطأ الخطى ليعرف اسم هذا الراوي الذي يجلس إلى مكتب ويدوّن حكايتهم، وكان سعيد الطالع أن سمع ليلى تقول إني أفتقد أحمد.

69

انتبه الشيخ إلى أن عيونهم كانت سليمة، كانت سليمة وحلوة ولامعة، وكانت مبصرة. فكر لوهلة في عينه اليسرى المعلّقة الآن فوق هرم رمادي في منتصف الميدان، وتمنى أن يستردها. في هذه اللحظة بالذات، بينما يسير هائمًا تحت شوارع مسقوفة بالسماء الزرقاء الصافية وبين جدران ترسم طريقًا لا يمكن الخروج منها، أطلت عليه زوجته من تحت شجرة التوت. يا شيخ، نادت له. أراك بعينين سليمتين، فلِمَ الحسرة؟ في هذه اللحظة عرف أنه استرد عينًا، لم تمر إلا دقائق معدودات حتى عثر على نهر صغير. حين اقترب منه ليشرب، شاهد صورته على صفحة الماء. وكانت عيناه سليمتين، فابتهج.

70

الآن تسترد بصرك. الآن تكتمل بصيرتك.

قال له أبو العلاء من الضفة الأخرى من النهر.

71

عبر طريق دائرية، وعبر تخريمات بين أزقة وممرات، وصل الشيخ إلى غرفته بالقبو. لا يعرف كم سار، لا يستطيع أن يخمّن الزمن، لا يعرف أصلًا إن كان ثمة زمن. لقد لاحظ في الأيام السابقة عدم وجود ليل ولا نهار، بل مرحلة تشبه الغروب، كل شيء واضح من غير ضوء كثير. كل شيء جلي رغم سيادة الظلمة. الظلمة أصل الكون، الظلمة هي البدء، ثم جاءت الشمس والقمر والنجوم، جاءت كمصابيح تضيء، لكن الضوء حجاب، الضوء يطمس الحقيقة. وفي الظلمة نرى، في الظلمة نبصر. كما كان الشيخ يبصر الآن، يبصر في ظلمة يتسلل إليها الضوء. وفي الظلمة رأى زوجته الأولى، أم ابنه.

72

كان يعرف أنها قُتِلت من دون أن يعرف السبب، ولا التحقيقات دلتهم على القاتل. الآن يبصر قصره الصغير وحديقته، الآن يبصر الشارع الهادئ بأشجاره. الآن يبصر امرأة تدخل مِن باب الخدم، الآن يبصر وجهها، إنه رجل حليق اللحية متخفٍّ في زي امرأة. الآن يبصر مَن فتح له الباب، مَن قاده داخل القصر، من ساقه إلى غرفة نومها، من دله على سريرها، من وقف يرتعش بينما نصل سكين القاتل يشق رقبة المرأة النائمة في سلام، نائمة بينما زوجها في اجتماع مع السلطان، اجتماع من أجل السلطنة. الآن يرى زوجته الثانية، المرأة الجالسة الآن تحت شجرة التوت، تدفع إلى لرجل القاتل على نفس باب الخدم. الآن يراها وهي تبتسم بينما يسيل دم زوجته، أم ابنه، على السرير ويصل إلى الأرض وينزل السلالم، ويبلغ باب الخدم، كأن الدم يتبع القاتل، ثم يتوقف عند قدميّ المرأة التي صارت بعد ذلك زوجته.

73

بقية الخدم لم يسمعوا صرخات زوجة الشيخ، حتى ظنوا أنها ماتت في صمت، أو أنها كانت ميتة بالفعل. غير أن الابن، الابن الذي كان ابن أشهر قليلة، الابن النائم في غرفة أخرى مجاورة، هذا الابن انتفض باكيًا كأن نصل السكين غُرز في رقبته هو، وكانت رقبته بالفعل تدمي، وترك نصل السكين علامة في رقبته لم يمحها الزمن. ثم حدث أن ظهرت الخادمة، الخادمة التي صارت الآن المرأة التي تجلس تحت شجرة التوت، وصرخت، صرخت وصرخت من كثرة الدم. تجمّع الخدم والحراس في بهو القصر في حيرة، تبادلوا النظرات في خوف، حتى قرر أحدهم الصعود إلى أعلى متبعًا خط الدم. وصلوا إلى غرفة زوجة الشيخ، وقرروا أنها ماتت.

74

كان الشيخ يبصر كل ذلك وهو يسير، ودمعت عيناه. زوجته الثانية إذن من قتلت زوجته الأولى وأم ابنه، هي إذن من صنعت الفخ وهو من وقع فيه وتزوجها. كان يفكر في ذلك حين تطلعت إليه المرأة العجوز من تحت شجرة التوت، تطلعت وهي تبكي. قالت: فعلتُ لأني أحبك، فعلتُ وتُبتُ وبكيتُ وتطهرتُ، وربيتُ ابنها كابن لي. فعلتُ لأن الحب قاتل كنصل سكين، ومن بوسعه أن يقاوم الطوفان من دون أن يغرق؟

ظلت آثار الدم على الأرض للأبد، رغم كل ما فعلوه لإزالته. ولم تغادر روح الزوجة الأم القصر أبدًا، كأنها تحرس دماءها المسفوكة، أو كأنها تنتظر الانتقام والعدل.

75

يمد يديه في البئر ويشرب منها، بينما الجدار يستعرض ما يجري في المملكة. يسترخي على السرير وينظر إلى الجدار بتأمل. كل البيوت مغلقة نوافذها وأبوابها، كل البيوت تبدو كمقابر، ولافتاتها ليست إلا شواهد قبر. بينما يتحرك الجنود والحراس في المملكة، يفتحون الدكاكين والمتاجر وورش الصناعات اليدوية، أو يتجهون إلى الأرض الزراعية. يتأمل الشيخ المملكة من دون أن يفهم ما حدث، ثم يخرج الناس من بيوتهم فجأة، كلهم في وقت واحد، يتبادلون النظر في صمت، يتبادلون التحية في صمت، كل رجل يتحدث مع امرأة، كل عائلة مع نفسها، كأن قطيعة حدثت بينهم.

76

أصدر السلطان فرمانًا بألا يخرج الناس من بيوتهم إلا ساعة واحدة في اليوم. ساعة يقضون فيها حوائجهم، يشترون مأكلًا ومشربًا، يتنزهون قليلًا ويُنزهون أطفالهم، ثم يختفون في بيوتهم. أنا المُستثناة الوحيدة من الفرمان، لأني اخترت شجرة التوت بيتًا لي، قالت السيدة العجوز للشيخ، ثم غابت في ملكوتها.

77

من زاوية ما من الحياة، هي الزاوية الأكثر حيادية، يبدو الصراع في الحياة محض صورة ضاحكة. بابتعادك عنها قليلًا، سوف تلمح كم السخرية في الصورة. بميلاد الإنسان، يتجه نحو موته، وكلما اشتد شبابًا، قطع الشوط الأكبر نحو الذبول. وراء كل قمة انحدار تالٍ، ووراء كل نجمة مضيئة انطفاء متعاقب، ووراء كل نشوة خمول مطلق. السخرية تكمن في الغرور، في نسيان اللحظة التالية للقوة، في تصور أبدية كل شيء، رغم أن العالم شُيّد ليزول. كيف يقتلون، إذن، إذا كان الموت سيلحق الجميع؟ كيف يهدرون حياة فرد إن كان ذلك لا يمد في أعمارهم؟ يسأل الشيخ ولا ينتظر جوابًا، إذ من مكانه ذاته قد تعرّف على الحماقة البشرية، وليس في ذلك اكتشاف يُذكر، فما الذي دفع قابيل إلى قتل هابيل إلا تصور مخاتل بالخلود، تصور بأن المنتصر في الصراع سيبقى للأبد.

78

ثم وجد نفسه غارقًا في قراءة كتاب الأحلام.

38 - أيًّا كان حجم موهبته، فالأكيد أن بابا هاداني بأرشيف من الصور يشبه، بجمعه وترتيبه، تاريخ عائلتي وتاريخ القاهرة في فترات متعددة، فجدران البيت المكسوة بصور أغلبها أبيض وأسود تسرد، مثلًا، لحظات من طفولتي البعيدة، لحظات هي الأهم لأني لا أتذكرها، وما كان لي أن أعترف بوجودها لولا أن الصور وثّقتها. بجانب الصور التي تركها لي بابا، سواء المجموعة في ألبومات مختلف أحجامها أو المعلّقة على الجدران وخزانة الملابس، أو التي تغطي جدران الإستوديو وغرفة التحميض، تركت لي ماما، ماما الحقيقية، شريط فيديو على علبته صورة لناهد شريف وعزت العلايلي، وأوصتني من دون أي إلحاح أن أشاهده في صباح رائق، وهو صباح لم يأتِ أبدًا إلا بعد أن أُغلِق الواقع وأصبحتُ مطرودًا منه كأي مجرم عزلوه جبرًا في سجن، عزلوه جبرًا بعد أن سلبوا منه عينًا يسرى لتبقى حدقته خاوية كبئر جافة. المفاجأة بالنسبة لي حدثت حين دققت النظر إلى علبة الشريط، إذ انتبهت، ولم أكن قد انتبهت من قبل، إلى عبارة مكونة من كلمتين ومكتوبة بقلم حبر شديد القتامة وبخط الرقعة: **تاريخ العائلة**.

39 - لم يكن هذا بالتأكيد عنوان الفيلم، لكن لم يكن ثمة عنوان آخر للفيلم ولا تعليق مصاحب للصورتين، حتى ناهد شريف وعزت العلايلي كانت صورتهما باهتتين بهتان الصور الأبيض وأسود التي تحولت إلى صور ملوّنة. ولسبب غامض، ظل الشريط في مكتبة التلفزيون، بصحبة كتب أخرى قليلة قرأت بعضها ولم أخطط لقراءة بعضها

الآخر، بجانب مجموعة أوراق مفردة مطوية أو مفرودة وأوراق أخرى كثيرة، مجموعة في دوسيهات ورقية بدون أي عنوان، أيضًا قرأت بعضها ولم أقرأ بعضها، وما قرأته لم يبد لي شائقًا ولا أثار فضولي، واعتبرت الأوراق تنتمي إلى زمن آخر ولا فائدة منها سوى الاحتفاظ بها.

40 - غير أني اكتشفت بعد ذلك أن الأوراق لم تكن تخص بابا وحده، فلماما نصيب فيها. وباستثناء حُجة البيت القديمة جدًّا المكتوبة بالفرنسية وعلى هامشها ملخص بالعربية، وباستثناء عدد قليل من الملفات والأفكار المتناثرة في ورقات أخرى مطوية وقديمة، أحسب أن بقية الأوراق مخطوطات لماما، ومثلها مثل شريط الفيديو لم تكن قد أتت اللحظة المناسبة للاطلاع عليها، ولعل كثرة الملفات (التي تشبه أرشيفًا مصغرًا) كانت سببًا في التكاسل عنها. كثرتها أم توهتي في الحياة؟ توهتي أم إصراري على السير في كل الطرق التي تنتهي بأسوار أسمنتية عالية وأنتهى أنا بالقعود تحتها لأراجع الطريق من بدايته؟ صارت شهوري الأخيرة تدور في الفراغ. تدور في الأمل. تدور في الانتظار.

41 - من بين كل الأوراق والدوسيهات في المكتبة، التفتُّ إلى ورقة صفراء مطوية، مكتوبة بخط يد مرتعشة، بقلم حبر شديد السواد، كأنها غلاف لكتاب ضائع: **ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور**، ولم تكن إلا ورقة منفصلة عن شجرة، وكنت مضطرًا، إن كنت أريد معرفة محتواه، أن أبحث عن هذه الشجرة بغرفة المكتبة، أن أفتح كل أدراجها وأبحث

بين ملفاتها عن مجموعة أوراق صفراء، مجموعة أوراق تضم حكاية لا أعرف بينما تكمن أهميتها، لكن شيئًا غامضًا، مثل الحياة، يدفعني إلى البحث. وفي لحظة عابرة تيقنت أن الأيام القادمة سأقضي ساعاتها في الفرجة على شريط الفيديو (إن كان صالحًا للمشاهدة وإن كان الفيديو القديم لا يزال يعمل بعد كل هذه السنوات) وقراءة الحكاية التي لا أعرف أين اختبأ مؤلفها، أو لماذا تجاهلوه.

42 - رقدت على الأرض وتأملت صورةً على جدار الصالة كان فيها، من ظهريهما، طفل في الثانية تقريبًا بصحبة أبيه يتسلقان مرتفعًا، كان الأب يمسك بيد طفله كعصفورة أم تعلّم صغيرها الطيران. لو كان هناك تتابع للصورة لرأيت الطفل بعد عدة أمتار أو كيلومترات بلا أب، يشق المرتفع بساقين ضعيفتين وحيدًا، أو ربما سيرقد على ظهره مثلما أرقد الآن، ليتأمل حياته، بعين واحدة، تمر أمامه وهو يتابعها كأنها تخص شخصًا آخر. الطفل كان يرتدي شورتًا وكان برقبة مستقيمة تنظر إلى الأمام وبخطى صغيرة لكنها ثابتة، بينما كان الأب برقبة ملتوية إلى اليمين لتراقب الطفل، ورغم أن خطوته كانت أوسع إلا أنها كانت مضطربة، كأن أمام يقين الطفل في الوصول إلى قِبلة كان ثمة شك يقتحم الأب في تحقيق ذلك.

43 - سمعتُ صوت ليلى على الباب تحدّث أحدًا ثم رن الجرس، حين فتحت البابُ لم أجد أحدًا، ولا كانت هناك حركة في المصعد أو على السلم، ركضت نحو الشرفة وتطلعتُ منها إلى الشارع العريض،

وعلى مسافة بعيدة جدًا، بين الآلاف من رجال بزي موحد، بدا لي أن الفتاة التي تخترق هذه الصفوف، وتسير بخطوة راكضة، هي ليلى ذاتها التي ما لبثت أن اختفت من الأفق. اتصلتُ برامز وهند وكان التليفون مغلقًا.

44 - أخرجت الفيديو من كارتونة قديمة ومسحت عنه الغبار، ثم شغّلت شريط الفيديو الوحيد في مكتبة بابا، بصورتين لعزت العلايلي وناهد شريف. في لحظات بدأ التلفزيون يعرض فيلمًا أبيض وأسود، تتنقل كاميرته من مكان إلى مكان، وتُعرض فيه شخصيات أعرفها، أعرفها جدًا، أعرفها لأنها عائلتي. أعرفها ولا أعرفها، لا أعرفها لأنها عائلتي. وكنت أنا من بين الشخصيات. كنت طفلًا وشابًا وعجوزًا. وماما الحقيقية كانت هناك، تملأ الشاشة بحضور طاغٍ. طاغٍ ومتواضع. طاغٍ في تواضعه. متواضع في طغيانه. وكانت ماما تشير في اتجاه إستوديو بابا. وبابا كان تائهًا، يتجول الشوارع بكاميرا فوتوغرافية معلقة برقبته. معلّقة كأنها تجره إلى مصير حتمي. كل الشخصيات التي كانت تسير أمامي في الشاشة كانت مجتمعة في صور فوتوغرافية بأحجام مختلفة في هذا الاستوديو. من بين الشخصيات كان أجداد أعرفهم من صورهم من دون أن أراهم، أجداد يحملون ملامحي القبيحة، يسردون قصصهم كأنهم في فيلم تسجيلي. من بين الشخصيات كان ثمة أجداد لا أعرفهم. لا أعرفهم رغم أني أراهم. رغم أني كنت أبصرهم. رغم أني سأظل أبصرهم إلى آخر شهيق.

45 - الفيلم لم يبدأ بتتر يعرض أسماء الممثلين. بدأ بموسيقى تصويرية تصاحب حركة الكاميرا في شوارع القاهرة. شوارع ليست شديدة الازدحام، لكنها شديدة الحياة. الأشخاص الذين ظهروا أولًا لم أتعرف عليهم، كانت الصورة من الخلف لأفراد يسيرون بخطى سريعة كأنهم يتعجلون الجنة، أو كأنهم يهربون من الجحيم. بينما كانت شمس الشتاء تضيء باستحياء، والجو العام ينبئ بأمطار. ثم بدأت المشاهد تسيل، وتظهر شخصيات أعرفها. وبينما أنا مندمج مع الشاشة، في انتظار ما سيحدث، أطلت عليّ ماما من كوة صغيرة، كوة ببيت من الطوب اللبن، كوة مستديرة ككرة أرضية، كوة كان فيها وجه ماما ككوكب ساطع. تطلعتْ إليّ ماما بعينيها البيضاوين وأمرتني أن أكتب أحداث الفيلم بالترتيب، بترتيب المشاهد، حتى ولو كانت أحداث الفيلم نفسها غير مرتبة ترتيبًا زمنيًا.

46 - في الخلفية، في ركن بعيد عن تركيز الكاميرا، كنت أنا موجودًا. كنت موجودًا رغم أني لم أكن قد ولدت بعد. زمن التصوير كان في الستينيات على ما أظن. أنا مواليد 78، ورغم أن الأبيض والأسود استمر حتى السبعينات (وربما أوائل الثمانينيات إن لم تخني الذاكرة) فإ الفيلم كان ينتمي إلى فترة سابقة. الغريب أني ظهرت كشاب في الثلاثينيات تقريبًا. ورغم أني كنت في الخلفية، إلا أن ماما كانت تنظر من الكُوّة نحوي وأنا أمام الشاشة. وكانت ماما ذابلة جدًا، مع ذلك ظهرت هي أيضًا من ضمن المارة القليلين أمامي كامرأة ناضرة.

47 - في الفيلم، تحركتُ من مكاني ودخلتُ شارعًا جانبيًّا، كان حارة بمعنى أدق، وكانت الشرفات متقاربة. وبينما أسير، كانت الجارات يتبادلن الحديث بأصوات عالية وضحكات خليعة. إحدى السيدات، ثلاثينية كانت، كانت عارية الصدر، أميز القناة بين نهديها، وكانت جميلة بشكل لافت. حاولت مقاومة الرغبة في النظر إليها، غير أني استسلمت، فسِرتُ أنظر إلى أعلى حتى عبرتها، وبمجرد عبوري شعرت بأني عبرت بجسدها ذاته، فتجولت بهذا الجسد. اقتربت جدًا من الأمعاء وسمعت تقلصاتها، ووجدتني أتجه إلى قلبها بخطى حثيثة لكن بطيئة. رأيت في قلبها عالمًا كبيرًا، زوجًا وابنًا وحيدًا، وأحزانًا ودماء، وشعرت بتأنيب ضمير حين رأيتها تنتظر زوجها بلهفة في الشرفة وقلبها يدق. كانت حياة مملة، لكنها كانت سعيدة بها على ما يبدو. خرجتُ من فمها فتجشأتْ، ووجدتُني في الشارع أكمل طريقًا لا أعرف نهايته.

48 - في لحظة ما، التفتُّ ورائي ونظرتُ إليها، فنظرتْ وابتسمت ابتسامة متواطئة. لا بد أنها شعرت بدخولي وخروجي فعاملتني كصديق قديم. قابلت في مواجهتي طفلًا في الخامسة يشبهني جدًّا، حين سألته عن اسمه قال اسمي، مبتسمًا، غير أنه حين دقق إليّ النظر شعر برعب وركض من أمامي.

49 - سيدة الشرفة الجميلة كانت تراقبني بعينين متفحصتين، ثم فجأة اقتربتْ الكاميرا من وجهها لأكتشف أنها ماما ذاتها. نفس العينين المستديرتين،

السوداوين، نفس الشعر الكيرلي، نفس الحاجبين الطويلين والوجه المستدير. نفس اللون القمحي والطيبة. ودّعتني المرأة بحركة من يدها، وأنا ودّعتها بحركة مماثلة وأنا مُلتفت إليها.

50 - ثم بعد خطوات سقطتُ في قبو مفتوح سقفه. قبو عميق، شديد العمق. ربما هبطتُ خمسة طوابق حتى أنحدر إلى القاع. لم أقابل مياهًا في طريقي، ما أبعد فكرة أن تكون بالوعة أو بئرًا، ولا في القاع وجدت قطرة ماء. من فوق الأرض إلى أسفلها كانت رحلة استغرقت خمس دقائق، لكنها في الحقيقة كانت سنوات. رأيت خالتي، زوجة بابا، راقدة في غرفة عمليات تجري عملية إجهاض. رأيتها تتمنى على بابا أن تنجب، وبابا ينظر إليها في أسى وعجز، يقول كلامًا يشبه أن أبناءها يموتون، لكني لم أتأكد من العبارة، إذ قالها بصوت خفيض ومضبب. ثم انتقلت الكاميرا ورأيت ماما الحقيقية شاردة في الشارع بخطى تائهة. رأيتني وأنا أكبر وكلما كبرت صغرت هي. كأنها تمنحني من ذاتها. وحين اكتمل جسدي باتت عمياء. كأني لأبصر، كان يجب أن تتنازل هي عن البصر. لم يكن، إذن، قبوًا، كان نافذة سفلية على عالم آخر. عالم رأيت فيه من أعلى بابا يتجول بكاميرته الفوتوغرافية، بينما كانت ماما تنتظره في الشرفة، وبينما أنا أتجول بالشارع.

51 - لقد انقسمت إلى إثنين، واحد ينزل إلى القبو، وآخر يشاهد الأول من أمام الشاشة وهو ينزل القبو. كنت أرى كل شيء مرتين. أثناء ذلك،

رأيت زفاف بابا على خالتي (زوجته التي كنت أظنها ماما حتى يوم وفاته) في مشهد، أيضًا، بالأبيض والأسود، زفاف حضره أجدادي وماما الحقيقية وأخوالي لكنهم لم يظهروا مرة أخرى في حياتي. وفي لحظة النزول، رأيت ماما الحقيقية مقتولة، وكان القاتل يقف أمامي بظهره بينما يتطلع من نافذة، ناديته أن ينظر إليّ، أن يلتفت وراءه. فكانت خالتي، ماما المزيفة.

52 - نظرتِ إليّ خالتي، ماما المزيفة، بدون أن تراني، وبحثتْ عني في الغرفة بدون أن تعثر عليّ. أشعلتْ سيجارة وعادت إلى النافذة، بينما دم ماما يتخثر على وجهها. اقتربتُ أنا من ماما وقبّلتها وأغمضت لها عينيها، وشعرت بأني أغمضتُ عينيّ ذاتهما إلى الأبد. ثم اقتربتُ من خالتي، ماما المزيفة، ووقفتُ بجوارها لأتطلع من النافذة إلى شارع واسع. في الشارع، كانت ثمة عائلة مكونة من أب وأم وثلاثة أولاد وبنتين تعبر الطريق بجوار تمثال طلعت حرب في اتجاهها إلى شارع قصر النيل ومنه إلى التحرير. كان الأب طويلًا ونحيفًا، والأم قصيرة وسمينة، أما البنتان فكانتا في سن المراهقة وبداية الشباب، الطويلة والبيضاء فيهما هي الكبرى، غير أن الصغرى الخمرية كانت الأكثر جاذبية.

53 - أتتبع خطى العائلة كما تتبع خالتي، ماما المزيفة، من النافذة نفسها خطواتها. يبدو الشارع خاليًا إلا من هذه العائلة السعيدة التي تقطع الشارع متجهة إلى ميدان التحرير حتى تصل إلى الكورنيش، فتسير بمحاذاته. هنا يظهر مصور فوتوغرافي من بعيد، يتابع العائلة بعينين

محرومتين بدون أن يقترب منها. في لحظة تقف العائلة لتلتقط صورة جماعية تخلدها للذكرى، هنا يقترب المصور الفوتوغرافي ويقف خلف العائلة، فيظهر في الصورة كرجل متطفل. وأنا واقف في النافذة، وأنا نازل إلى القاع، تبدو ملامح الرجل غائمة ومضببة. بينما وأنا في مكاني أمام الشاشة أرى الكاميرا تقترب كلوز على وجه الرجل، فأنتبه إلى أنه بابا.

54 - تلملم خالتي، ماما المزيفة، كل متعلقاتها، وتطبع قبلةً على خد ماما الميتة وتخرج بخطوات مترددة تقطعها التفاتات إلى الوراء. أنا أواصل نزولي إلى العمق مدهوشًا، وأرى جدي خلف القضبان بدون أن أعرف هل كان متهمًا بقتل ماما أم أن ثمة قضية حُبِس على ذمتها.

55 - حينما أرتطم بقاع القبو، أراني طفلًا في عامي الأول، بين أُمَين، هما ماما الحقيقية وماما المزيفة، ماما الحقيقية ترضعني، وماما المزيفة تتحسس قدميّ، ماما الحقيقية أكثر شبابًا وبراءة، وماما المزيفة أكثر أنوثة وقوة وأكبر سنًّا، بالطبع.

56 - تنقّلت الكاميرا وواصلتُ السير في قاع القبو حتى وجدتني في ميدان التحرير، وأتجه إلى شارع محمد محمود. كان ثمة زحام كبير، زحام لا يطاق، كانت تبدو مظاهرة كبيرة لكنها صامتة. المتظاهرون رفعوا الشموع، والشرطة أطلقت القنابل المسيلة للدموع ثم الرصاص الحي. كل المحيطين بي سقطوا غارقين في دمائهم، ووجدتني محاطًا بدماء

لم أر مثلها من قبل. دماء لم أستطع تجنبها فغصت فيها بحذائي، محاولًا السير على أطراف أصابعي حتى لا أدوس عليها. كنت أركض بحثًا، كالمجنون، عن ليلى وهند ورامز، رأيت ظهورهم فركضت إليهم والرصاص كان ينطلق في كل مكان. حين وصلتُ، في اللحظة نفسها، أصابت رصاصتان عينيّ هند الاثنتين ورصاصة جبهتها، وأصابت أخرى عين رامز، وأصابت ثالثة عين ليلى، ثم أصابتني رصاصة في عيني اليسرى وفقدت الوعي.

57 - الآن، في الفيلم، أراني نائمًا في جانب ما من الميدان، حولي مجموعة كبيرة من الناس والأطباء يحاولون وقف نزيف عيني ومداواتي، وحولي أجساد ليلى وهند ورامز مسجاة. ليلى وهند ورامز غارقون في دمائهم. دمي يختلط بدمهم كما اختلطت من قبل أفراحي بأفراحهم وأحزاني بأحزانهم. الآن أرى الطبيب يضغط على ساعد ليلى ليقر بأنها ماتت. الآن أرى نفسي، في غمرة فقداني للوعي، أبكي دموعًا بعين يمنى، وأبكي دمًا بحدقة يسرى فارغة.

58 - أنتفض وأركض وأركض وأركض. وحذائي يطبع دماءً في كل الخطوات التي أقطعها، حتى في البيت طُبعت الدماء على السلالم والعتبة والسجادة. أجلس على الكنبة منهكًا، وأراني بجانبي جالسًا أمام شاشة التلفزيون أشاهد فيلمًا لبطل مزيف هو أنا يركض في الشارع.

59 - كانت ماما تتطلع إليّ من آن إلى آخر عبر الشاشة، كانت تنظر بعين

حدقتها فارغة، وعين بيضاء، لكنها لا ترى. كان يبدو أنها لا ترى، غير أني كنت على يقين من أنها ترى كل شيء. لا بد أنه طبع ماما، تعرف كل شيء وتدّعي عدم المعرفة، ترى كل شيء وتدّعي العمى. حتى عندما ماتت لم تكن قد ماتت. كانت تستريح لتعود إليّ مجددًا لتدلني على الماضي، لتكشف لي ما لم أكن أعرفه. وأنا كنت أعرف أنها مختبئة في مكان ما، كنت أعرف لأنها كانت تطل عليّ من آن إلى آخر وتجالسني وتحكي لي، تحكي لي عن بابا وعن خالتي وعن ليلى. كنت أنا الوحيد الذي أعرف أنها حية، حتى لو لم يصدقني أحد. ثم أدركت بعد ذلك بسنوات أنها ميتة. أدركت ذلك حين ذكّرتني ليلى بدفنها. رغم أني لم أصدقها تمامًا، وإلا مَن تكون هذه المرأة التي ترافقني في الصحو والمنام؟

79

جلس الشيخ في مضطجعه، وتأمل الجدار الذي يعرض المملكة، نصف السكان تحولوا إلى حراس وجنود، والنصف الآخر اختفى تمامًا، لا بد أنهم مختفون في بيوتهم، لا بد أنها ليست ساعة خروجهم من بيوتهم. الحراس والجنود كانوا يتحركون الآن في الميدان، ولا تزال أرضيته حمراء من أثر دمي، ولا يزال الهرم الرمادي منتصبًا بعين يسرى تعتليه. وكانوا يتحركون بالسوق، بالشوارع، ممتلئين بالزهو، يهدمون الأرض تحت أقدامهم، وتحت أرجل جيادهم.

80

– حين أمر السلطان، يا شيخ، بحبس الناس في بيوتهم إلا ساعة، استولى الحراس على أراضيهم وورشهم ومتاجرهم، كما ترى، وصاروا يمنحون الأهالي كل صباح قوت يومهم، يومًا وراء يوم. قالت العجوز الجالسة تحت شجرة التوت.

– ولماذا حبسهم؟

– لأن أخبارًا وصلته بأنهم مستاؤون ويستعدون للثورة عليه.

– ومَن أبلغه؟

– الأهالي أنفسهم، وشى بعضهم ببعض. لقد خلق السلطان بينهم بصّاصين، أصدر فرمانًا بأن يشي الجار بجاره، بأن يشي الأخ بأخيه. ألا ترى أن نصف أهل المملكة صاروا من الحراس والجنود!

– ولماذا يريد أهل المملكة الثورة على السلطان، وماذا يريدون؟

– لماذا، لأن الظلم قد بلغ مداه، لقد رفع السلطان الجباية فما عادوا يحتملون، بينما يعيش هو وحاشيته في بذخ. بالإضافة إلى ذلك، زاد عدد المختفين من أبنائهم، كلما وشى رجل برجل قبضوا عليه أو خطفوه أثناء سيره، ثم لا نعرف عنه شيئًا، حتى أنه ما من بيت إلا واختفى منه شاب. أمّا ماذا يريدون فلا شيء إلا العدل.

– ولماذا استسلموا للحبس في البيوت ولم يتمردوا؟ سأل الشيخ.

– لأن أمر السلطان بحبس الأهالي في بيوتهم اشتمل على حبس رؤوس التمرد ثم قتلهم، ثم تفاجأ الناس فلم يعرفوا ماذا يفعلون من بعدهم.

كانت العجوز الجالسة تحت شجرة التوت تقول ذلك بأسى وبدموع توشك أن تهرب من عينيها.

81

نهض الشيخ وتجول في القبو، ثم عاد وتجول في القبو. كان يلف ويدور في حيرة، كان يلف ويدور في حزن. فكّر أنه لم يكتف برؤية زوجته تُقتل أمام عينيه، ولا اكتفي بالسجن في قبو، محرومًا من ابنه وزوجته الأخرى، إنما الآن يشهد المملكة تموج، ويرى أهلها محبوسين في بيوتهم. ثم في لحظة ما توقف، فكّر في أن خوفهم من الدفاع عنه منح للسلطان قوةً ليذيقهم المذلة. فكّر أنهم شاهدوا الحراس يحرقون مخطوطاته من دون أن يرمش لهم جفن، وشاهدوهم يقتنصون له عينًا من دون أن يخفق لهم قلب. لم يكن تفكيره تشفيًا فيهم، إذ كيف يتشفى فيمن دفع حياته دفاعًا عنهم، وتفرّغ لكتابة قائمة بأسماء المختفين من أبنائهم. لم يكن تشفيًا، لكنه تأمل في كيف تدور الدوائر، في كيف أن الأيام دول، في كيف حين يأتي الظلم يتذوقه الجميع بالدور، فلا ينجو أحد مهما ظن أنه ناجٍ. أثناء ذلك انتبه إلى

الجدار المضيء وأنصت للأصوات الهائلة التي كانت تخرج منه. كان الآلاف يخرجون من بيوتهم في هتافات عالية. كان الآلاف ينادون بعبارات ضد السلطان وحراس السلطان. كانت الأمهات الثكالى تنادي بأسماء أبنائهن، وكان الرجال ينادون برفع الظلم. ثم تجمعوا بالآلاف عند الميدان. ثم التفوا حول الهرم الرمادي. ثم واصلوا الصياح. وعلى حين غرة هاجمهم الحراس والجنود، أمروهم إمّا العودة إلى البيت في دقائق، وإمّا الموت.

فاختاروا الموت.

82

شاهد الشيخ التمرد:

كان على رأس المتمردين ثلاثة وجوه يعرفها جيدًا، حين دقق النظر انتبه إلى أنهم حراسه الشخصيون، حراسه الذين قادوه إلى هذا القبو تنفيذًا لفرمان السلطان، ثم اختفوا ولم يرهم قط. هم الآن يقودون أهل المملكة ضد السلطان، هم الآن يقفون في مواجهة حراس السلطان. هم الآن تصيبهم الرماح في صدورهم ويلقون حتفهم. يصيب السهم قلب أحدهم فيتوجع الشيخ في قبوه، وينزف. والحراس والجنود من فوق الجياد يصوّبون سهامهم نحو صدور أهاليهم، يقتلونهم بلا رحمة، فيفر الناس وهم ينزفون، ويمتلئ الميدان بالدماء، يغدو بحرًا أحمر.

83

لكن من كثرة الدماء المهدرة، من كان يتخيل كل هذه الدماء؟! عجز الحراس والجنود وبعض المتطوعين من الأهالي عن سحبها من الميدان، عن تجفيف الميدان منها. فتحول الميدان إلى بحيرة حمراء في منتصفها هرم رمادي تعتليه عين. بعد ذلك بسنوات طويلة، من يدري ربما مئة عام أو أكثر، سيقترب الأطفال ليغتسلوا في هذه البحيرة، من دون أن يعرفوا أنهم يغتسلون بدماء أجدادهم.

84

خرج الشيخ إلى الممر وكان مزدحمًا، مئات السيقان تروح وتجيء، مئات الوجوه تتطلع من النوافذ، ميّز منها وجه ليلى فابتسم، قال لنفسه: هذه حبيبة الكاتب، كم هي جميلة. كان يود لو يرافقها معه، كان يود لو يقودها إلى مكانه، لكن الكاتب لا يراه، يحدس بحضوره فحسب. هل يمكن لـ ليلى أن تراه.

– يا ليلى، ناداها الشيخ.

– يا شيخ، كيف حالك؟

دُهِش الشيخ أنها تعرفه، وسألها:

– أتعرفيني يا ليلى؟

– ومن لا يعرفك؟

- وكيف تعرفينني؟

- مِن كتبك يا شيخ.

- كيف وكتبي قد أحرقوها وغدت هرمًا رماديًا؟

- حرقوا الورق يا شيخ، لكن الحروف هربت، هربت وتسللت لأجساد الناس وسكنتها، ثم خرجت منها في كتب أخرى تُنسب إليك.

- كيف ذلك يا بنتي؟

- خرجت في حراسة العين اليسرى المعلقة فوق الهرم الرمادي.

- يا للمعجزة!

- الكلمات لا تضيع يا شيخ، الكلمات مصيرها الخلود. هذه كلماتك يا شيخ، هذه نبوءتك وقد غدت حقيقة.

85

في الجدار المضيء، شاهد الشيخ أهل المملكة يركضون نحو بيوتهم ويختفون. شاهد الحراس والجنود ينظفون الشوارع. شاهد السلطان ووزيره يتجولان في عنجهية بغيضة، يتلفتون حولهم في عنجهية بغيضة، يتحدثون مع الحراس ويلقون عليهم الأوامر في عنجهية بغيضة. استغرب الشيخ من قوة الجهل وبطش العمى، تساءل ما المكسب الحقيقي الذي يحققه السلطان بحبس الناس وقتلهم وخطف أبنائهم، وأومأ برأسه إيماءة من أدرك أنها سيرة الحياة، تاريخ العالم الذي لم يتغير. القتل من أجل البقاء، خطف السعادة العابرة لا البحث عن الراحة المقيمة. لم يعرف الشيخ هذه المشاعر، لم يعش هذه التجارب بنفسه. كان ابنًا متبنى لعائلة ثرية، وكان قنوعًا بأقل القليل وزاهدًا في كل شيء. لم يطمح إلى شيء قط إلا العلم، لم يدافع إلا عما يراه حقًا، لم يصمت على ظلم، لم يكن القصر مكانه، إنما الشارع. لم يكن السلطان

ولي نعمته، بل الناس، فقيرهم قبل غنيهم. قضى حياته يراكم العلم والحب، منذ الثانية عشرة أدرك أن مصيره أن يكون كاتبًا وعالمًا ومؤرخًا، فكرّس وقته للعلم، تفقه في الدين وأحاط بالتاريخ وقرأ كتب الآخرين، كان أبو العلاء المعري صديق وحدته، وكان يحب فيه لسانًا كالسوط وإن لم يكن هو كذلك، وإن سعى. في سنواته الأخيرة قبل الوصول إلى القبو، كان يعد كتابًا عن تاريخ الطغاة والتعذيب، كتابًا لو اكتمل، لغدا مصيره مرجعًا لكل القراء والسلاطين والمؤرخين وكل ذي عين. كان الكتاب مشغولًا بالسلطة وأهل السلطة وفسادهم، وكان دليلًا يهتدي به كل حاكم قبل أن يتولى العرش. يظن الشيخ أن مخطوط الكتاب تبخّر، أنه صار رمادًا مجمّدًا في هرم الميدان. لكن ظن الشيخ محض ظن، لقد تطايرت الحروف والكلمات، لقد استقرت في نفوس أهل المملكة الذين ثاروا لما علموا، عبر الكلمات التي تسللت إلى نفوسهم، أن الثورة على الظلم عبادة، فعل تقوى، وأن الصمت طريق إلى الجحيم.

86

غفا الشيخ غفوة قصيرة، فجاءه ابنه وعانقه.

– أنا بخير يا أبي، أبحث عن الحقيقة ومن يبحث يصل.

– إن وصّلت، وثّق، فالحقيقة ليست جبلًا راسخًا في الأرض، بل رمادًا يطيّره الهواء.

– أكتب كل ما أستطيع يا أبي، لا ينقصني إلا ما يحدث لك في القبو.

– ما يحدث لي ستراه في المنام، سأمليه عليك في الرؤيا.

– يا أبي، ومَنْ أدراني أن كل المنامات حقائق؟ ومن أدراك أن ذاكرتي ستحفظه؟

– الأحلام أكثر حقيقية من الواقع، لكن لا يأمن للذاكرة إلا ساذج. سأكتب ما أعرفه، سأعنونه: **ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور**.

87

انتفض الشيخ من غفوته ورأى في الجدار المضيء هرجًا ومرجًا. كان الحراس والجنود قلقين ومتوترين، يتبادلون حديثًا بأصوات مرتفعة. لم يخرج أحد من أهل المملكة من بيته في الساعة المخصصة للخروج، لم يروحوا لاستلام غذائهم وغذاء عائلاتهم، لم يتنزهوا مع أطفالهم. مرت الساعة وبعدها ساعة ولم يظهر لأهل المملكة طيف. مرت ساعة أخرى وساعتان ولم يظهر ظل رجل. مرت ثلاث ساعات وظهر السلطان ووزير السلطان وحراس السلطان. كان السلطان غاضبًا، مدخنًا، ومن في رفقته كانوا غاضبين مدخنين مثله، ربما يحاكونه، وربما كانوا غاضبين بالفعل، وإن كان الشيخ يرتاب في الفرضية الثانية. كان يسير على قدمين سلطانيتين، يومئ بإيماءات سلطانية، يسب ويلعن بسباب ولعنات سلطانية، حتى دله الوزير وأشار عليه:

– اسمح لي جلالتك أن أقول لك إن اختفاء أهل المملكة لا يستحق أن تشغل بالك، ولا أن تغضب نفسك من أجلهم.

– كيف ذلك يا وزير، كيف لا ترى في اختفائهم خطورة؟

– اختفاؤهم، جلالتك، أمارة التمرّد، طريقة ليلووا ذراع جلالتك لتدق عليهم أبواب بيوتهم وتقول لهم هيا خذوا غذاءكم، فيتنمردون ويتشرطون لتعيدهم إلى أعمالهم وترفع عنهم الجباية.

– وبماذا تشير عليّ يا وزير؟

– تجاهلهم يا جلالة السلطان، فغدًا، عندما يقرصهم الجوع ويأكل بطون أطفالهم، سيخرجون في موعدهم يستجدون غذاءهم.

88

بين منعرجات أزقة صغيرة، رنا الشيخُ إلى أبو العلاء وكان في صحبة أصدقاء: دانتي وبورخس. حيّاهم بالسلام بأسمائهم وحيّوه باسمه، كأن بينهم صداقات عمر طويل. ثم واصلوا حديثهم عن القبو والممرات المتشعبة، وقال أبو العلاء إن ما كتبه في رسالة الغفران كان قد شاهده ببصيرته، وإن رحلة المعراج كانت ما فتح له هذا الباب المغلق، كأنه باب سحري، وأضاف أن العمى يعزز البصيرة. "كل هذا رأيته من قبل، الأقبية والممرات والأزقة الثعبانية"، قال أبو العلاء. وردّ دانتي بأن رسالة الغفران قد فعلت له نفس الشيء، إذ منها جاءت الكوميديا الإلهية "وما كان لي أن أكتبها لولا رسالتك يا أبو العلاء". وكان بورخس ينصت إليهما بطيبة، كان عجوزًا تجاوز الثمانين، غير أن عينيه كانتا سليمتين. وكان يصغي إليهما كأنهما يلقيان درسًا وكأنه تلميذ، حتى قال إن المتاهة التي كثيرًا ما كتب

عنها جاءته من نفس النبع، "لذلك اعتبرت نفسي دائمًا قارئًا يعيد كتابة ما قرأ". استمع لهم الشيخ بوجل، غير أنه كان مشغولًا بأهل المملكة ولا يعرف أين ستستقر بهم الأمور.

89

تركهم بورخس وسار ببدلته وعكازه ليستكشف الممرات، كان يقول "الباب هو من يختار المرء"، من دون أن يعرف أي باب اختاره، ثم ردد "لا تستحق أفعال البشر لا الجحيم ولا الفردوس". كان الرجل أحدب قليلًا، بشعر أبيض ناعم وطيبة تكسو ملامح وجهه. كان مبصرًا، لكن نظرته الزائغة كانت توحي بأنه أعمى. لم تكن الممرات المتشعبة التي يسير فيها إلا صورة معكوسة، على ما أظن، للممرات التي تحفر طرقها في رأسه.

90

أراد الشيخ أن يدعوهما، أبو العلاء ودانتي، إلى شيء إكرامًا لهما، غير أنه لم يكن يمتلك إلا أوراقًا من **كتاب الأحلام**، فدعاهما إلى قراءتها ليشعرا معه بالونس. ساروا جميعًا في اتجاه قبوه، وفي الطريق قابلوا بورخس شاردًا، يحدّق بعينين ذاهلتين إلى الشرفات والنوافذ والتماثيل والأجساد الشفافة والبيوت الصغيرة، فدعوه إلى مرافقتهم، فلبّى الدعوة كمنوّم مغناطيسيًا. في القبو دخلوا وجلسوا. في القبو شاهدوا الجدار المضيء.

91

يا لهول ما يحدث في المملكة.

في القبو كانت المملكة بلا صوت، يتحرك فيها الحراس والجنود. في المملكة تحول الحراس والجنود جميعًا إلى تماثيل شمعية. تماثيل شمعية تتحرك، تسير وتجلس، تنظر وتشرئب بأعناقها، من دون أن تبصر شيئًا. أما أهل المملكة فلا يزالون مختفين عن الأنظار. لم يُدهَش أبو العلاء ولا دانتي ولا بورخس، لم يُدهشوا من تحول المملكة إلى تماثيل شمعية، ولا دُهِشوا من اختفاء أهل المملكة. لكن الشيخ دُهِش. دُهِش وصُعِق. لم يفهم كيف تحولوا إلى تماثيل شمعية، وبينما يراقبهم بورخس يقول: "طوبى للشجعان، يقبلون الهزيمة والنصر بالروح ذاتها".

ثم سحب الشيخ أوراقًا من **كتاب الأحلام** وشرع في القراءة، فأصغوا له:

60 - أنهض من مكاني وأتجول بالبيت. أسير داخل جسدي ذاته، كمتسلل إلى أرض غريبة، وأرى بعينيّ شكل كبدي ومعدتي وكليتيّ، إنها تضاريس العالم، العالم كله غدا بداخلي، بسهوله وجباله، بوديانه وبحوره. أتلمّس بأصابعي طريقًا محاطة بجدران، جدران هي عظامي ذاتها، وفي جدار ما، أسمع نبضات وأرى نورًا، هو قلبي ذاته، ينبض ويقيس درجة حياتي، ويعيد، بقدرة سحرية، كل الذكريات بقدر ما يرى المستقبل. في هذا الجدار لا زمن، أنا نفسي سائل كزئبق، لا يمكن الإمساك بي، ولا به. أسير وأسير وأسير ثم أسقط، أسقط وأستريح قليلًا عند أمعائي، وهناك أمسح قدميّ الملوثتين بدماء المتظاهرين، بدون أن أعرف هل هي دماؤهم فعلًا أم دمائي. وبالقرب من رئتيّ وجدت صورًا مصغرة لأجدادي وأخوالي، وفي قلبي صورة كبيرة لماما الحقيقية وخالتي، بينما شغل بابا الصدر بأكمله كخلفية، صورة تشبه صورة تطلّع منها إلى المصور كمتطفل في صورة عائلية. عندما دخلت ناحية الطحال لأعد كوب شاي بينما أنظر إلى الطرق التي ترسمها أمعاء طويلة ومتعرجة، انتبهت إلى أني لا أزال في القبو، تحت الأرض. ومع أنه مسقوف إلا من فتحة كنت سقطت منها، فإن الداخل كان عبارة عن بيوت متجاورة متقاربة الشرفات، وكل من يتطلعون إلى الشارع كانوا عائلتي، أجداد وجدات وأخوال وماما وبابا. وليلى.

61 - بين كل هذه البيوت كنت جالسًا بذراعين حول ركبتيّ، بينما أسمع هتافات احتجاجات تأتي من بعيد. وفي غمضة عين، أرى بابا يمر من

أمامي ويعطيني عملة ورقية من دون أن ينظر إلى وجهي، ويواصل طريقه بكاميرا معلقة برقبته. حين نهضت بتثاقل، كمن يحمل حملًا ثقيلًا على كتفيه، ومشيت بخطى بطيئة، وجدتني في ميدان التحرير. حينها لاحظت أن الفيلم الأبيض وأسود تحول إلى ألوان، وسمعت شعارات الثورة التي أعرفها جيدًا. في الميدان رأيت أجدادي وجداتي وخالتي وأخوالي، ورأيت ماما تسير بجانبي بينما بابا يلتقط الصور كعادته، بدون أي رغبة في أن ينضم إلى أحد ليتصور بجانبه. كانت المجموعات كبيرة وحاشدة، وكانت تسير كمن تعرف قبلتها ومبتغاها. في لحظة ما أعطاني رجل سندوتشًا وقدمت إليّ امرأة زجاجة مياه. وبينما كنت أشرب بعينين مغمضتين، لاهثًا، ومستمتعًا بالماء البارد النازل على رئتيّ الملتهبتين رغم الشتاء، شعرت بأن الأصوات اختفت تمامًا كأنها لم تكن موجودة أبدًا. حين فتحت عينيّ، وجدتني محاصرًا بالدبابات والبنادق مصوبة نحوي. قلت لهم لم أفعل شيئًا، كنت مارًا من هنا مثل كل العابرين. ثم سددوا طلقة صوب عيني اليسرى، لا أعرف من أين أتت، ونزفت دمًا كثيرًا جدًا فوق ما أتخيل، لا بد أنه ليس دمي وحدي. كانت الكاميرا مسلطةً عليّ وفي لحظة فقدت الوعي، لكني لم أغِب عن العالم.

62 - كأني كنت في حلم، إذ رأيت نفسي أركض وأركض بدون توقف ولا التفات، كل الناس حولي كانوا مجرد تماثيل شمعية، وكانت الأرض رملية، كلما تقدمت في الخطى طُبِعت قدماي كرسم أبدي، وعلى

يساري أمواج بحر متلاطمة، كنت قلقًا جدًا من البحر لأني مدرك أني في القاهرة وليس الإسكندرية، وظننت لوهلة أن البحر ليس بحرًا بل نهرًا، وكان هذا التفسير منطقيًا لأني وقعت بميدان التحرير، أي بالقرب من كورنيش النيل. وبينما أركض، ربما بعد ساعات من الركض، انتبهت إلى أن الأمواج المتلاطمة لم تكن أمواجًا، بل جنودًا مسلحين، ملايين الجنود يخرجون من النهر ويصنعون أمواجًا. ملايين الجنود يأتون صوبي ويسددون رصاصة صوب عيني اليسرى. ملايين الجنود يصوبون رصاصات نحو عينيّ ليلى فتصيب عينها المضيئة وتموت. ملايين الجنود يصوبون الرصاص نحو عين رامز وهند ويموتان. وحين أفيق، أجدني في حبس انفرادي، في غرفة مترين في مترين، على جسدي آثار تعذيب وحول عيني اليسرى ضمادة ولون أحمر ربما مركيروكروم. الغرفة لها باب بفتحة مثل كوة مستديرة، تطل منها ماما بعينين بيضاوين وتشير إليّ أن أشاهد الفيلم.

63 - سحبتُ كتابًا من رف المكتبة، وقرأت قصة "الموت والبوصلة" لـ بورخس وأنا متكئ على الأريكة أمام التلفزيون المطفأ الآن. شردتُ في جريمة القتل الغامضة، وفي المحقق الذي يحاول جمع كل المعلومات الممكنة بما فيها الكتب الخاصة بالتصوف اليهودي ويحاول فك شفرة اسم "الله" والتعرف على فرقة الحاسيديم ليفهم عقلية القاتل ومن ثم يتوصل إليه. لم تبدُ لي قصة بوليسية كما صنّفها المؤلف، إنما بدت لي قصة وجودية، قصة ميتافيزيقية تبحث عن الله بطرق أخرى، قصة

بحث عن المجهول توسلت التشويق لتجر القارئ إلى النقطة التي يود تجاهلها. بتجريد القصة من أحداثها والعودة إلى مادتها الخام، ستكون "الموت والبوصلة" تقاطعًا مع "الخالد" و"الأطلال الدائرية". أثناء ذلك، أثناء القراءة، كنت أسمع صوتًا نابعًا من التلفزيون رغم أني لم أفتحه، فأنظر إليه لأتأكد من أنه مغلق، فأجده مفتوحًا. في التلفزيون، كنت أجلس مسترخيًا على أريكة وأقرأ كتابًا لبورخس. ثم تحولت الشاشة في مشهد سريع، وعادت إلى الأبيض والأسود مجددًا، وأنا كنت في الستين من عمري على ما يبدو، والشيب غزا رأسي حتى غدا ككتلة من القطن. لحيتي وشاربي أيضًا تحولا إلى الأبيض، لكن نظارتي السوداء بقيت على حالها، بدون أن يصيبها البياض. لم أدهش حين رأيت نفسي في التلفزيون وبيدي نفس الكتاب، وقد بلغت سنًّا لم يبلغها بابا. بمعنى آخر، صرت أنا أكبر من بابا الآن.

64 - بينما كنت جالسًا على الكنبة أشاهد الفيلم، أشاهد نفسي جالسًا على كنبة في الفيلم وبيدي كتاب، تطل ماما برأسها وبابتسامة نادرة وتقول لي "والله وكبرت يا ولد"، وتبعتها "بقيت أكبر مني يا بن الكلب". ثم رأيت كل أجدادي وعائلتي، من أعرفه منهم ومن لا أعرفه، جالسين حولي، يمدون يدهم إلى طبق فاكهة ويأكلون. وحين نهضت لأغسل أسناني، شعرت بأني أسير مرة أخرى في جسدي، داخل جدراني، لكني فكرت أن أستريح قليلًا في مخي، ثم سريعًا ما انتبهت إلى تلافيفه وطرقه المعقدة، وظللت أراقبه لساعات لأعرف كيف تتشابك الطرق،

بينما أسمعهم ينادوني ليعرفوا ماذا أفعل أنا وأتركهم بمفردهم وهم ضيوفي.

65 - قرّبت الفرشاة من فمي وغسلت أسناني برفق وأنا أسمع صوتًا من الشقة المجاورة عبر شباك الحمّام، صعدت على قعدة التواليت لأطل على سبب الصخب، فسمعت جارتي تصرخ بصوت عالٍ جدًا: حرامي، حرامي. لم أفهم هل الحرامي في شقتها أم في شقتي. وبعد دقائق سمعت دقًا على الباب، دقًا مفزعًا. شعرت باستياء كبير لأنه لا يصح أن يطرق أحد الباب هكذا، مع ذلك فتحت الباب رغمًا عني وإن كانت نيتي ألا أفتحه عقابًا للطارق. رأيت أمة لا إله إلا الله في فسحة السلم أمام الشقة، وعلى السلالم المؤدية إلى أعلى وإلى أسفل. هاجموني جميعهم بسؤال واحد "إنت مين؟". وأنا صمتُ من هول المفاجأة وهول السؤال. أدهشني أيضًا أن كل هذه الوجوه التي لا أعرفها وجوه جيراني، لكنهم ليسوا جيراني الذين كنت أعرفهم طوال حياتي. قلت لهم أنا في بيتي، قالوا لا، قالوا هذه الشقة خالية منذ سنوات وأصحابها سافروا. ثم طلبوا مني، بصيغة ما بين التهذيب والتهديد، أن يسلموني للشرطة، وأن أحضر معي ما يثبت ملكيتي للشقة. لم أحمل شيئًا معي ونزلت معهم باستياء.

66 - وأنا على الأريكة كنت أشاهد توتري في الشاشة، ولم أكن أعرف شكلي متوترًا من قبل. في الشارع لم أجد سمة من سمات الحياة. كانت

الشوارع مزروعة بشواهد قبور، حتى البناية التي كنت أسكنها لم تكن بناية كما كنت أعرف، بل مقبرة متعددة الأدوار يسكن فيها، على ما يبدو، موتى. في الطريق إلى قسم الشرطة، اختفى كل الجيران الذين كانوا يرافقونني، ووجدتني وحيدًا تمامًا أتجه إلى الشرطة لأخبرهم بأن جيراني أخرجوني من بيتي.

67 - في قسم الشرطة وجدت تماثيل شمعية داخل فترينات زجاجية. كان الجو باردًا جدًا ولم أحتمل، فنصحني أحد الحراس، لا بد أنه مجند (وكان تمثالًا شمعيًا أيضًا)، بأن أضع طبقة شمع على جسدي حتى أدفأ. حين فعلتُ ذلك أمرني بأن أدخل في فترينة، دخلتُ وجلست على كرسي وشعرت بسعادة كبيرة في البداية. بعد دقائق التفت إلى أن رؤيتي للعالم تغيرت تمامًا، حيث أتطلع إلى نفس العالم من خلف فترينة زجاجية، فترينة تجعلني أرى لكني معصوم من الأذى، ثم أنهم أصبحوا يعاملونني بتقدير لافت.

68 - من آن إلى آخر كان يأتي زوار ينظرون إليّ ويصورونني، والحارس يفتح الفترينة ويمسح جسدي بقماشة رقيقة وبرفق. لم أشعر برغبة في الأكل أو الشرب، وبالتالي ولا قضاء الحاجة. في لحظة، بينما أجلس على الأريكة وفي حجري كتاب وأشاهد الفيلم، رأيت الكاميرا تقترب من وجهي وأنا داخل الفترينة. لفتني احمرار وجهي ودقة نظرتي، كأني أنظر إلى أفق لا أحد يراه غيري. فرحتُ، كطفل، وأنا أرى الزوار

يقتربون مني، ومن مكاني أمام الشاشة كنت أرى ظهورهم وأشبّه عليهم. يبدو أنهم جيراني الذين اختفوا في الطريق. داخل هذا المشهد أدركت أني في فيلم. لكني كنت عاجزًا عن الخروج منه، كأنه مصير لا فكاك منه، مصير يشبه مصير الميت حين يدرك أنه قد مات.

69 - في متحف الشمع حيث دخلت بدون إرادة مني، اقتحمني الخوف ليلًا. كان الظلام الحالك يملأ المكان، لا إضاءة إلا بياض الأجساد. في لحظة خوفي، فُتح الباب وتطلّع حارس يختلف عن حارس النهار. اقترب مني وفتح باب الفترينة الزجاجي وأخرجني في صمت. وفي صمت اقترب مني رجلان كانا ينتظران عند باب قسم الشرطة، أو المتحف، وحملاني في عربة بعد أن غطياني بقماشة رائحتها منفّرة. داخل فيلا قريبة من النيل، عرّوني. ورأيت صفقة بيعي ونصائح الحفاظ عليّ ودرجة الحرارة اللازمة. ثم وجدتني في غرفة باردة، منعزلة، مضاءة بضوء خافت، لها باب وشرفة وممر طويل. في الممر رأيت أبو العلاء المعري ودانتي وبورخس، كانوا يمرون أمامي ويتحدثون بينما ينظرون إليّ، بينما كنت جالسًا أكتب، وكان بيننا حاجز غير مرئي لكني أعرف بالحدس أنه موجود. ثم اقتربت من شرفة لأطل وأعرف أين أنا، فرأيت طفلًا ربما في العاشرة، يشبه كثيرًا الطفل الذي رأيته في الحارة الصغيرة قبل أن أسقط في القبو.

70 - الطفل كان ينتظرني تحت الشرفة التي تطل على شارع خلفي، فوضع

لي سلمًا اجتهدت حتى استطعت الصعود عليه إلى الشارع، وتجولنا في الشوارع بخطى بطيئة، كأننا لا نريد أن نصل إلى أي مكان. وعلى رصيف قريب، أجلسني الطفل، وبقميصه القطني أزال عني كل الشموع. حاول أن ينظّف شعري أيضًا وأنا أضحك، حين انتبه لضحكي قلت له إنه لون شعري، كتلة قطنية تشبه الشمع. ثم حكى لي الطفل أنه يبحث عني منذ رآني مارًا في شارعه، وأنه أراد أن يحذّرني من القبو لكن شيئًا ما منعه، ربما قدري. أثناء ذلك، وأنا في مكاني على الأريكة أتطلع إلى الشاشة، كانت الكاميرا تتجول بالشوارع والميادين، وكانت الشوارع والميادين حافلة بفترينات زجاجية، وكانت الفترينات الزجاجية حافلة بتماثيل شمعية، وكانت التماثيل الشمعية هي عائلتي وجيراني ومعارفي وصداقات عمري، باستثناء ليلى ورامز وهند، وكان على فترينات التماثيل الشمعية جنود شمعية يحملون بنادق يُظن أنهم يحرسونها، وكانت التماثيل الشمعية حية وتنظر إليّ لأنقذها، لكني كنت أيضًا تمثالًا شمعيًا حتى لو بدا غير ذلك.

71 - واقتربت الكاميرا وظلت تقترب من وجه الطفل. حينها لاحظت أنه كان طفلًا عجوزًا، نظرته عميقة رغم براءة ملامحه، في حاجبه الأيسر ندبة مثل الندبة في حاجبي الأيسر، بنفس الحجم والشكل، صغيرة ومستديرة ومشرشرة، كأنها شمس وهذه أشعتها. سألته عن الندبة فابتسم، قال حجر صغير ألقاه أحد الجيران وضل طريقه فأصابه. قلت: وكنتَ جالسًا على حجر كبير أمام عتبة البيت. قال نعم. قلت:

وظللت تجري وراء من أصابك وتطارده لتأخذ ثأرك بينما تنزف. قال نعم، وكيف عرفت؟ لم أحك له بقية الحكاية، لأني طوال حياتي أهرب من الندبة. أهرب من الندبة التي جاءتني بالصدفة، من السهم الذي ما كان يجب أن يصيبني فأصابني، وأهرب من الثأر.

72 - صغيرًا، قبل أن أبلغ سن هذا الطفل، كنت أظن أني يجب أن أنام بعد أن أصفي حساباتي مع العالم، حسابات صغيرة لكن كان يجب أن أصفيها، ثم انتبهت إلى أني كلما انتقمت انتقلت الندبة من مكانها الظاهر لتستقر بداخلي، تحفر مكانها في قلبي، وندبات الداخل لا شفاء منها إلا بالزمن. مع أني لا أعرف ما الزمن.

73 - سرنا أنا والطفل مسافة طويلة، ربما مسيرة يوم أو عام أو عقد، في الطريق قابلنا حفرات كثيرة وبالوعات مفتوحة وأقبية لا بد يسكنها أناس نعرفهم، وكانت فترينات التماثيل الشمعية مرصوصة بلا نهاية. تسلقنا تلالًا ونزلنا منحدرات، لاحظنا تغير شكل المدينة، ونمنا، كتمثالين شمعيين، في الطرقات، وشعرنا بالبرد، واستيقظنا لنكمل الطريق بدون أن نعرف إلى أين.

74 - وفجأة دخلنا شوارع، شوارع صغيرة، وحارات، حارات تؤدي إلى حارات، ووجدنا أنفسنا هناك، في حارة ضيقة شرفاتها تعانق بعضها. دخلنا بيتًا نعرفه، وصعدنا درجات سلم اعتدنا عليها، وحين طرقنا الباب، فتحت امرأة جميلة خمرية بشعر كيرلي، غير أنها لم تكن شابة

كما هُيئ لي حين دخلت جسدها وخرجت منه، وحين التفتُ إليها وأنا أسير بالحارة حتى وقعت في القبو. رحبتْ بنا من دون أن تسأل الطفل أين غاب، ولا بمن عاد، ولا سألتْ الرجل العجوز الذي كنته من أنت. دخلتُ أنا والطفل نفس غرفة النوم، تركني على السرير واستأذنني أن يدخل ليستحم ووعدته بالدخول بعده. نمت في مكاني ربما لدقائق، ربما لساعات، ربما لأيام. وحين استيقظت وجدتني في غرفة لها باب وشرفة صغيرة تطل على شارع خلفي. حين أطللت من الشرفة رأيت جنازة كبيرة، فخرجت من الغرفة لأشارك فيها، فلم أر لا الطفل ولا أمه في الصالة. ناديت على الطفل باسمه، باسمي، يا أحمد، فلم يرد. ناديت على السيدة بماما، فلم ترد. نزلت راكضًا كأن واجبًا لا يصح أن أتأخر عليه يناديني. سرت في الجنازة بجانب بابا وحملت النعش على كتفي، وحين وصلنا إلى المقابر رأيت اسم ماما على شاهد قبر، هناك بالذات توقف النعش ونزلنا لندفنها. هنا اقتربت الكاميرا من وجهي، فرأيتني الطفل الذي يودّع أمه، فبكيت مجددًا وأنا جالس على الأريكة وعلى حجري كتاب.

75 - كانت ماما، ماما الحقيقية، ماما التي اكتشفت أنها ماما الحقيقية وأنا في الثامنة، ماما التي اكتشفت أنها ماما الحقيقية بعد مقتلها، وجاءتني وأنا في الثامنة لتكشف لي الحقائق، هي من تقود دفة الفيلم كأنها مخرجته. كان هذا ما يبدو لكنه ليس الحقيقة. الحقيقة أن ماما كانت تدلني فحسب على طرق أسير فيها، أو تدلني على مشاهد في الفيلم

لأصل إلى حقائق ما. ماما الحقيقية، التي اكتشفت أنها ماما الحقيقية، كانـت قد قُتلت قبل موت بابا بعام واحد، ماتت قبل أن ألتقيها مرة واحدة، وحين التقيتها كان ذلك في جنازة بابا، جاءت واصطحبتني في طريق العودة إلى البيت. وفي البيت دخلت معي وعاشت بعد موتها، كأن روحها لن تعرف الراحة قبل أن تكشف لي كل شيء، وكل شيء لم يكـن كل شيء يخصها هي فحسـب، ولا يخصها هي وأختها وبابا فحسـب، إنما كل ما يخصني أنا كذلك، كأنها طاقة القدر التي تفتح على عوالم سرية.

76 - اللافت أني حين دخلتُ البيت، كانت خالتي (من كنت أظنها ماما) قد اختفت من حياتي إلى الأبد، كأن موت بابا موت مضاعف: بابا ومن كنت أظنها ماما رحلا في نفس الوقت. مع ذلك، ظلت ليلى تكذّبني، وكانت تدلل على ذلك بوضع الصورتين متجاورتين: لكن ماما الحقيقية كانت خمرية بشعر كيرلي، وماما المزيفة (خالتي) كانت بيضاء بشعر ناعم. ليلى لم تر ذلك أبدًا، وأنا كنت أراه بوضوح.

77 - وذات ليلة لا أنساها، بعد موت بابا بليلتين، أيقظتني ماما الحقيقية من حلم غائم، واصطحبتني إلى مكان كأنه ينتمي إلى عالم آخر، أو بُعد آخر، عبر طريق مضببة سرنا فيها زمنًا طويلًا بدون أن نشعر بالتعب. لم أسأل عن شيء، ولم تحدثني عن شيء، كنت مأخوذًا بالطريق وبأشجاره

الرمادية، كنت مأخوذًا بالطريق وبأرضيته التي لم تكن لا أسفلت ولا بلاط ولا باركيه ولا كريستال، كنت مأخوذًا بالطريق لأنها بدت لانهائية مع أنها قد تنتهي في أي مكان في ذات الوقت.

78 - حينها ظهرت بناية من العدم، بناية يبدو تصميمها مألوفًا لي، وبدلًا من أن نصعد البناية عبر سلم أو مصعد، هبطنا إلى أسفلها عبر سلم قد تصل درجاته إلى ألف سلمة. هناك، في مكان يشبه مغارة أو قبوًا، وجدنا ساحة كبيرة تتوسطها نافورة جافة، ووجدنا زحامًا من الناس والسيارات، ودخلنا بناية تشبه البناية الأخرى في تصميمها، وبدت لي مألوفةً أيضًا. حين صعدناها عبر سلم، فتحت ماما الباب بمفتاح لأرى في الصالة أفراد الصورة التي ضمت عائلتي متجسدين: جدي في مركز الصورة طويلًا ونحيفًا وله كرش حاول أن يداريه بغلق زر البدلة، وعلى يمينه جدتي، قصيرة وسمينة وتغطي شعرها بحجاب، وماما المزيفة، فتاة بيضاء بشعر أسود وناعم وقد اقتربت من العشرين، وخلفها بابا يتطلع إلى الصورة كمتطفل، وعلى يسار جدي خالاي، وعلى طرف الصورة ماما الحقيقية المراهقة، بشعرها الأسود الكيرلي وبشرتها الخمرية، ويد جدي امتدت إلى كتفها في إشارة إلى الحماية، بينما تنظر ماما الحقيقية إلى بابا نظرة خفية وتبتسم. كل مَن في الصورة كانوا يتحركون الآن أمام عينيّ، بعلامات السن قد غزت ملامح وجوههم.

79 - وبينما كنت أقف أنا وماما الحقيقية وراء باب الشقة نتابع الأحداث، النقاشات الحادة، الصوت المرتفع والتشويح باليد، كنت أسمع صوتي قادمًا مـن الغرفة، صوتي وهو ينادي متلعثـمًا على ماما، صوتي وهو ينادي بمخارج حروف مشـوهة رغم جلسـات التخاطب الطويلة ومحاولاتي المضنية لمحاكاة ليلى، لكن صوتي لم يكن متلعثمًا ولا مشوهًا فحسب، كان أيضًا يبحث عن طريق، كأنه في متاهة ولا يعرف سبيلًا للخروج.

80 - ومن مكاني وراء باب الشقة، بجانب ماما الحقيقية، عرفتُ أن ماما المزيفة (خالتي) كانت تجهض باستمرار لسنوات، وعرفت أنها أنجبت قبل ميلادي أطفالًا ماتوا قبل أن يولدوا وآخرين ماتوا في أيامهم الأولى بالحياة. ومن مكاني وراء باب الشقة، عرفت أن بابا وزوجته اتفقا مع ماما الحقيقية، من وراء جديّ وفي سرية تامة، أن يرافقها سرًا من أجل إنجاب طفل، وأن تنتهي هذه العلاقة بمجرد ميلاد الطفل. وكان هذا الطفل هو أنا. لكن هذه العلاقة لم تنته قط.

81 - في المشهد الذي كنت أراه الآن، كمشهد ختامي انكشف فيه كل شيء، كمشهد ختامي يلزم أن تطلق فيه أحكام على ما حدث خلال سنوات، قرر جدي أن تُقتل ماما، ماما الحقيقية، لأنها في نظره من ارتكبت الخطيئة، حتى لو كانت الخطيئة إسداء معروف لأختها. أيدت ماما المزيفة هذا الحكم، كان يجب، بحسب ما بدا لي، أن تتخلص من أختها

ليبقى لها البيت: الزوج والابن، حتى لو كان الزوج سيبقى كجسد بلا روح، حتى لو كان الابن ليس ابنها. ماما المزيفة لم تكن وحدها المزيفة، أنا أيضًا كنت ابنًا مزيفًا.

82 - أصرت ماما المزيفة على أن القتل يجب أن يحدث بيد بابا ذاتـه، ربما لأنها شـعرت بأن بابا يحب ماما الحقيقية. من هنا كانت الأصوات المرتفعة، من هنا كان التشـويح بالأيدي، من هنا كان النقاش الـحاد الذي يشبه المشاجرة. في المشهد، لم تتكلم ماما الحقيقية، لم تعارض أي حكم، لم تدافع حتى عن نفسـها، كانت تنظر إلى كل ما يحدث بنظرة سـحرية، آسرة، نفس النظرة التي كانت تتطلع بها إلى المشـهد وهي واقفة بجواري. ثم أخرج جدي مسدسًا وأعطاه لماما المزيفة، وماما المزيفـة بدون تفكير صوّبت رصاصـة واحدة إلى عين ماما اليسرى، ماما الحقيقية. لقوة الرصاصة وقرب المسافة ماتت ماما، ماما الحقيقية. وسـال الدم في القبو، سال ووصل إلى غرفتي، وأنا من غرفتي كنت أصرخ، كان صوتي مرتعبًا، كان مرتجفًا حد أن الحروف لم تكن تخرج من بين شفتيّ، لكن الدماء، من قوتها، دفعت الباب فغدا مواربًا.

83 - وأنا من مكاني وراء باب الشقة، بجانب ماما الحقيقية، رأيت الدماء تسيل وتحمل عين ماما اليسرى كهدية إليّ، إليّ وأنا جالس في غرفتي، جالس على ركبتيّ أتأمل العين التي تطفو فوق الدماء: عين ماما اليسرى، العين اليسرى التي جاءت تسبح في وسط الدماء بدون أن يمسها سوء،

العين اليسرى التي تسبح في وسط الدماء ولا تزال تلمع بنظرة سحرية وآسرة. حينها كنت راكعًا على ركبتيّ، وسحبت العين اليسرى من الدماء براحة يدي، تأملتها فكانت نقية وناعمة.

84 - حينها نظرتُ إلى عين ماما اليسرى وبادلتني العين النظر، ومن دون تردد ركّبتها فوق عيني اليسرى، فحلت محلها، أو اندمجت فيها.

85 - وحينها تركوا جسد ماما، ماما الحقيقية، مسجىً على الأرض، وفتحوا باب الشقة من دون أن يرونا، وصعدوا واحدًا تلو الآخر درجات السلم، لأبقى أنا وماما وحدنا وراء باب الشقة نتأمل الجسد المسجى والدماء، نتأمل جسدها المسجى والدماء والطفل الذي هو أنا ويجلس على ركبتيه وسط الدماء وبعين يسرى استعارها من ماما ذاتها. أمسكت ماما بيدي، ونحن وراء باب الشقة، وأمرتني بأن أنظر إليها، فنظرتُ. كانت حدقتها اليسرى فارغة، لكنها كانت مبتسمة، وفي حدقتها اليسرى الفارغة رأيت رجلًا فوق تبّة عالية، مكبلًا بالسلاسل، يحيط به حراس كثيرون. ورأيت سهمًا يخترق عينه اليسرى. ورأيت عينه اليسرى تستقر فوق هرم رمادي.

86 - ثم تقدمت بي ماما الحقيقية عدة خطوات حتى اقتربنا من جسدها المسجى على الأرض، أوقفت حنفية الدماء المنبثقة من الحدقة اليسرى بمسحة يد واحدة، وحفرت حفرة بأطراف أصابعها، ووضعت الجسد المسجى هناك، ثم جففت الدم السائل بيدين ساحرتين، غير أن الدم

لم يختـف أبدًا، ظلـت علاماته على الأرضية والجـدران، وكنت أراه كالشـمس واضحًا، واضحًا وفي شـكل عين مسـتديرة ومسحوبة. وحينهـا رأيتني أضطجع على السرير في سـلام، أنظر بعين يسرى في أفق لا يراه أحد سـواي. وحينها رأيتني نائمًا بابتسـامة ساخرة كمن اكتشف الحقيقة.

87 - ثم نادت ماما الحقيقية الطفلَ الذي كنته، فانتفض من منامه راكضًا، فرفعتْه براحتيّ يديها وألبستني إياه كأنها تلبسني قميصًا على مقاسي بالضبط. وسرنا معًا في القبو، في شوارع وطرق، رأينا آلاف البشر هناك، لكني رأيت أبو العلاء المعري ودانتي وبورخس مرة أخرى، ورأيت معهم ابن الخطيب تائهًا يبحث عن شيء، ورأيت معهم ابن رشد، ورأيت معهم طه حسين، لم أكن أعرف من هم، لكن كلًا منهم كان يقول اسمه كلما مررت به، كأنه يخلد ذكراه في ذاكرتي. ثم رأيت بشرًا كثيرين، وكلما مررت على أحد منهم قال لي اسمه. ورأيت كثيرين يشاهدون التلفزيون أو يقرؤون كتبًا، رأيت جرائد ولافتات دكاكين وعيادات ومستشفيات، ثم قرأتُ في جريدة خبرًا عن العثور على 33 جثة مجهولة الهوية بمشرحة زينهم، ومن بين الجثث كانت ليلى وهند ورامز. حين توقفتُ مصعوقًا سحبتني ماما بقوة، كأني اطلعتُ على ما لا يخصني، كأني كشفت عورة الغيب.

88 - هربتُ من ماما، وظللت أركض وأركض وأركض في طريق طويلة،

طريـق لا نهائية، كل الذين قابلتهم في طريقي كانوا تماثيل شـمعية، كلهم كانوا تماثيل شـمعية. حتى وصلت إلى بيتي. وحين استرحت إلى الكنبة، كان التلفزيون مفتوحًا، وكنت أشعر بأن جسدي مفتت، كأن كل جـزء فيه قرر الانفصال بذاتـه، كأن كل جزء قرر أن يكون جزيرة منعزلة، وأنـا كنت مجرد جسر يربط كل هذه الجزر، أو يفرّق بينها. كنت أضطجع على الكنبة أمام التلفزيون، وكان برد آخر نوفمبر يتسلل إلى عظامي كلما نمتُ، وكنت أنام تقريبًا طوال الليل والنهار، وحين أستيقظ أسير كمنوم مغناطيسي، أتطلع إلى بيتي كغريب، وأتطلع من الشرفة إلى الشارع كغريب، ونادرًا ما أنظر إلى المرآة، ولو رأيتني بالصدفة في مرآة باب الصالة أشعر باستغراب. الشيء الوحيد الذي لم أكن أسـتغربه هو حدقة عيني اليسرى، حدقة عيني التي تبدو بلا عـين، لكن في عمقها عـين ماما اليسرى، عين تـرى كل شيء، عين ترى ما لا يُرى. عين هي الشيء الوحيـد الأصيل فيّ، الشيء الوحيد الذي يرى.

89 - كان التلفزيون مفتوحًا طوال الوقت حتى عندما أطفئه، كان يستمر في عرض حكايات وقصص حتى مع انقطاع الكهرباء. وأمامي، ملقية على الأرض كأنها طفل يدبدب بقدميه، كانت الورقة الأولى من مخطوط "**ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور**"، ووجدتني مضطرًا أن أعرف ما يجب أن أعرفه، أن أواصل البحث عن الكتاب نفسه.

90 - في مكتبة بابا، المكتبة التي اختار أن يقيمها في غرفة صغيرة بالبيت (بينما كرّس بقية الجدران للصور الفوتوغرافية)، مكتبة تشغل المساحة كاملة بأرفف لا نهائية، وتضم مئات الكتب والأوراق والمجلدات، عثرت على كتاب "**ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور**" في مكان لم يكن أبدًا ليخطر ببالي: في كرتونة مستطيلة على الأرض، محاطة بصفوف من الكتب في شكل أعمدة. الكتاب كان مكتوبًا بخط اليد، بقلم حبر، فوق صحائف شديدة القدم، قدم العالم ذاته، لكن الخط كان واضحًا تمامًا كأنه كان محفوظًا بيد إلهية. سحبته من الكرتونة برفق، من أتى به إلى هنا؟ جلست على الأرض مستندًا إلى الحائط، محاطًا بمعارف الكون من حولي.

91 - ثم شرعتُ حينئذ في قراءة كتاب "**ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور**".

92

من مضطجعه، يشاهد الشيخ الجدار المضيء. النهار يملأ أركان المملكة، والسيدة العجوز تغادر شجرة التوت الهائلة، وتتجول الآن متكئة إلى عكاز. السيدة العجوز تهمهم بكلمات لا يفهمها أحد، فلا يفهم الشيخ إن كانت نبوءات أم ذكريات. ما الفارق في الحقيقة بين ما وقع وما سيقع؟ هل النبوءات إلا ذكريات الآخرين؟ يفكر الشيخ أن كل شيء قد وقع بالفعل، لكن خبر وقوعه قد يتأخر من مكان إلى مكان. قد يتأخر في المسافة التي يقطعها بين بُعدين، بين عالمين، بين عالم اللازمن والعالم الزمني. يفكر الشيخ في أن الماضي والحاضر والمستقبل ليسوا إلا محض أوهام، أو أنهم خطوط متوازية. أن كل ما يحدث حدث في لحظة بعيدة في بُعد مختلف، ويظن أنه الآن في بُعد آخر، بُعد يقرأ من خلاله **كتاب الأحلام**، كما يرى من خلاله ما يحدث في المملكة. يرجع إلى الجدار المضيء مرة أخرى، يشاهد الحراس والجنود

يتحركون في الشوارع في ارتباك، يحرثون الأرض ويحصدون المحصول، يبيعون ويشترون في الأسواق. ثم فجأة، يستعرض الجدار والبيوت من الداخل. نساء ورجال، أطفال وشباب وعجائز، ربما خوفًا من تهديدات وصلت إليهم وربما بحثًا عن حياة أخرى، قرروا، من دون أن يعرف أحد كيف اتفقوا على ما قرروه، أن يحفروا تحت بيوتهم، وأن يصلوا بين كل بيت وبيت بممرات تحت الأرض. الآلاف يعملون ليلًا ونهارًا، ويتحدثون بينما بينهم عن أمل تشييد مدينة تحت الأرض، مدينة قد يسميها البعض بالقبو. هل يشيدونها بالفعل أم يزيلون عنها الغبار؟ هل كان تحت المدينة مدينة حين همّوا بالحفر اكتشفوها؟ هل تحت المدينة مدينة قديمة سمعوا عنها كثيرًا من أجدادهم من دون أن يعرفوا إن كانت حقيقية أم مجرد أساطير؟

حتى تلك اللحظة، كان الآلاف يقتاتون على خزينهم، يتعاونون بينما بينهم لكيلا يموت أحد منهم. سيمر كل شيء كأنه ليلة وضحاها، وسينسون كليةً حياة المملكة.

93

السلطان يسير في موكب، محاطًا بوزرائه ومستشاريه، محاطًا بحراسه وجنوده. السلطان حائر أمام اختفاء أهل المملكة، وحاشيته تطمئنه وتستبشر باختفائهم. "المملكة عادت لنا، فليموتوا جوعًا"، قال له أحد الوزراء. وهمس بين الحراس يدور: "لن يبقى في المملكة إلا أنصار السلطان وأتباعه"، "المتمردون ليس لهم مكان بيننا". "لكن المتمردين أغلب أهل المملكة، كيف يمكن الاستغناء عنهم"، "على مَنْ سيصير السلطان سلطانًا لو اختفى الأهل المحكومين". "سنكتفي بالحراس والجنود ونسائهم وأطفالهم"، يرد الوزير على أفكارهم بصوت عالٍ. "الأرض والمتاجر والأسواق لأتباع السلطان" "احرثوا وازرعوا واحصدوا وبيعوا واشتروا"، يقول السلطان كفرمان ملكي لا يُرد ولا يُجادل فيه. يظن من ينظر إلى السلطان أنه قوي ومتسلط، أن بوسعه أن ينسف المملكة بالكاف والنون، لكن من يتأمله سيلاحظ الخوف في عينيه، سيرى

الاضطراب والقلق، سيلمح أسئلة تدور في عقله وتملأ صدره عن غد لا يعرف عنه شيئًا. السلطان، مثل كل السلاطين، لا يهمه أن يصوّب السهام والرماح إلى قلوب أهل المملكة والتخلص منهم، لكنه يريد إماتتهم بطريقة أخرى: بطريقة السيطرة التامة، بطريقة الخضوع له. لكنهم، بعد تمردهم الأخير وقتل أهاليهم واختفاء أبنائهم، اختفوا، فلا هم اعترضوا وتمردوا ولا هم خضعوا. هذا الصمت هو ما يقلق السلطان. هذا الصمت هو ما يقتله، وإن بدا غير ذلك. وبينما السلطان مشغول بهذه الهموم، كان الفرح يشيع في المملكة، يرقص الجنود والحراس بما يتنافى مع طبيعة عملهم، لكن اليوم يوم عيد، مَن يؤاخذهم على فرحتهم؟ ومن نوافذ بيوت الحراس والجنود، حيث لهم بيوت تحيط بالقصر، بعيدة عن بيوت أهل المملكة العوام، تطلق النساء الزغاريد، بينما لا يفهم الأطفال أسباب الفرح المفاجئ.

94

سحب الشيخ أوراقًا وقلمًا وشرع يكتب بالحبر "**ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور**". فكّر في البداية أن يكتب يوميات، لكنه سريعًا ما شعر بالخزي من أن يكتب عن ذاته، واستقر على أن يكتب ما يشبه اليوميات لكن من خارج هذه الذات، من ضمير الغائب، من المنطقة التي يطل منها على نفسه وعلى كل ما يحيط به وما يراه، سيكون بذلك جزءًا من الأحداث وليس منفصلًا عنها، سيكون جزءًا من الأحداث ولا يطل عليها من بعيد. ومن مكانه بالقبو، سيشاهد نفسه جالسًا في القبو يشاهد الجدار المضيء. ومن مكانه بالممر، سيشاهد نفسه سائرًا بالممر وحيدًا أو بصحبة أحد.

95

– قل لي يا أبو العلاء، هل نحن في الجحيم؟

– ماذا تقول يا شيخ؟ ألم تدرك بعد أين أنت؟

– والله لو أدركت، ما سألت.

– وكيف لا تدرك وأنت في المكان الذي ينكشف فيه الغيب، في المكان الذي يسعى إليه الجن لكشف المحجوب، فلا يصلون ولا يعودون من حيث جاؤوا.

– ألا ترى يا مولاي أن كشف المحجوب هو الجحيم ذاته؟ أن المعرفة نار تحرق؟

– الجحيم، ما يسمّونه جحيمًا، هو أن تجهل أنك في الجحيم. الجحيم، ما يسمّونه جحيمًا، هو الجهل يا شيخ. المعرفة ليست جحيمًا، لكن المعرفة

هي القدرة على رؤية الجحيم. أن ترى الجحيم وأنت فيه خير من أن تكون فيه من دون أن تعرف. الجهل بأنك في الجحيم مثل وخزات إبرة تنخر فيك من دون أن تراها. المعرفة هي رؤية سن الإبرة. المعرفة أمل في النجاة، أمل في الهروب.

– الهروب إلى أين؟

– إلى الفردوس لو استطعت، أو إلى البرزخ لو استطعت، أو إلى اللامكان لكن بعيدًا عن مركز الجحيم.

– ونحن الآن، أين نكون يا مولاي؟

– في مكان نكشف به المحجوب، ولكي نبلغه، استغنينا عن الدنيا وزهدنا في مطامعها. لكي نبلغه، ولّينا ظهورنا إلى ما يستجديه الناس. لكي نبلغه، أخلصنا للمعرفة وأحببنا بني آدم. لكي نبلغه، تنازلنا عن نصيبنا للآخرين في مقابل الفوز بالبصيرة. لكي نبلغه، تجنبنا الزيف ما استطعنا لنبلغ الحقيقي والأصيل. كل جيراننا هنا وصلوا إلى هنا بعد أن دفعوا أثمانَ غالية، إما دفعوها بمحض إرادتهم، وإمّا فُرضت عليهم فنالوا التعويض والمكافأة.

– وهل سنبقى هنا إلى الأبد يا أبو العلاء؟

– نحن الآن خارج الزمن، خارج عجلة الزمن التي يدور فيها البشر فيعجزون ويشيخون ويموتون. سنبقى على حالنا حتى يشاء الله أمرًا آخر. ومن يدري، ربما نخرج من هنا ذات يوم.

96

في الخفاء، في ظلام الليل، يتحرك ثلاثة حراس بثلاث عربات في منطقة مساكن العوام بالمملكة. ليس في حركتهم ما يثير ريبة أو شبهة، إنهم في نوبتهم الليلية يتجولون في المملكة ليطمئنوا على حالة الهدوء والاستقرار. يتجولون كعين ساهرة للحفاظ على أمن المملكة. هذا ما يبدو، وربما يكون حقيقيًا أيضًا، لكن ثمة حقيقة أخرى: كل عربة يجرها حصانان، كل عربة يقودها حارس، وكل عربة تحمل المؤن في السر، كل عربة تحمل المؤن لأهل المملكة الذين فرضوا على أنفسهم الحبس. لأهل المملكة الذين لا يكفون عن الحفر والحفر. المؤن، التي أمر السلطان بحفظها في المخازن العامة حتى يرى ما يرى من أمر أهل المملكة، يحملها الحراس الثلاثة، المنتمون إلى أهاليهم وليسوا إلى السلطان، حتى لو ارتدوا الزي الرسمي الموحد. الحراس يقضون الليل في نقل المؤن من المخازن إلى أهاليهم، يوزعونها عليهم في صمت، يمررونها لهم من نوافذ بيوتهم التي يواريها الأهل في تواطؤ متفق عليه مع الحراس.

97

الحرّاس الثلاثة، لعل المعلومة تنفع في شيء، لهم إخوة ماتوا وسالت دماؤهم في المعركة غير المتكافئة بين أهل المملكة وجنودها، وعجزوا عن الدفاع عن إخوتهم لأنهم كانوا في الخندق المواجه لهم. يبدو أنهم غير مقتنعين بسياسة السلطان، لكنهم في نهاية المطاف اختاروا، أو فُرِض عليهم، أن يكونوا بجانبه. وربما لا يؤمنون بالتمرد على السلطان، ويرون في المتمردين مخرّبين، لكنهم مع ذلك يشعرون بالأسى على أهاليهم، ولا يودون أن يكون الموت جوعًا مصيرهم. ربما في ذلك يتشابهون مع السلطان ذاته، أنه لا يريد موت أهل المملكة، إذ أنه سلطان بهم وعليهم، إذ أنه يريد حياتهم الخاضعة، يريد التمجيد والمديح والشعور بالعظمة. لكننا لا يصح أن نحكم على النوايا ونتجاهل الفعل، فهؤلاء الحراس يتكبدون التعب ويعرضون أنفسهم للمخاطر، فكيف سيكون حالهم لو انكشف أمرهم؟

98

من مكانه أمام الحائط الأبيض، يسمع الشيخ كلمات أهل المملكة في بيوتهم، يراهم يتحركون أمامه ويفترضون الافتراضيات. الشك في الحراس لا يغيب عن أحدهم، رجل خمسيني يسأل ابنه أليس ممكنًا أن تكون هذه لعبة السلطان، أليس ممكنًا أن يكون الحراس بالفعل أتباعه، أليس ممكنًا أن تكون المؤن محض شرك أو مصيدة، وها نحن ندخل المصيدة بأرجلنا. ارتياب الرجل الخمسيني مشروع ومعقول، بل كان سيصير حكمة وحصافة لولا أن الحراس بالفعل لا تفارقهم دماء أخوتهم والشعور بالذنب، ولولا أن الحراس، كما يبدو من أحاديثهم بينما بينهم، يشعرون بالنقمة والغبن، ولولا أن من بين أهل المملكة أمًا لحارس وأبًا لآخر وإخوة آخرين لثالث. والسلطان، من جانب آخر، لا يعوزه اللجوء إلى الحيلة ونصب الفخاخ، إذ السلطان هو السلطان، رب السلطة والقوة فلا يعوزه اللف والدوران ولا البحث عن طرق ملتوية. يفكر الشيخ، من مكانه أمام الجدار المضيء، في أن

الحيلة وسيلة الضعفاء، أن الحيلة فطنة لا يتمتع بها السلاطين، أن مواجهة الموت بمحض إرادة ليس إلا طيشًا، أن يد البطش لا تعرف الرحمة، وأن الفطنة ليست في التحدي كما ليست في الجبن، إنما في الوصول حيث تريد بأقل الخسائر الممكنة، بأقل قدر ممكن من الدماء. يراجع الشيخ مشهد التبّتين المتواجهتين، يستحضر السهم الذي انطلق وأصاب عينه. لا يشعر بالندم لأنه لم يكن أكثر حصافة، لكنه يفكر في إن كان ثمة طرق أخرى لم يتبعها.

99

السيدة العجوز الجالسة تحت شجرة التوت هي الشيء الوحيد المتبقي من المملكة التي يعرفها الشيخ. كل شيء تبدّل كأن الزمن تغير برمية نرد، كأن يدًا رمادية مسحت المملكة فخلّفت وراءها هذا اللون الغامق قليلًا، وبَصَمت بخطوط راحة اليد على الشوارع والطرق فغدت كأنها شارعان وحارة. البيوت هي البيوت لكنها لم تعد كما كانت. السلطان هو السلطان لكنه ما عاد كما كان. ما الذي تغير كذلك؟ تساءل الشيخ ليعدد التغيرات: فرحة الأمس بين الحراس والجنود غدت غمًا؛ زغاريد النساء باتت صراخًا؛ ورغم حركة الحراس والجنود خاصةً في ساعات الصباح، فإن المملكة باتت مهجورة، كأن لعنة حلت عليها. لم يتغير السلطان، حتى نكون منصفين، لكن الشيب تسلق رأسه في طرفة عين، وحدبة صغيرة تسلقت ظهره. ورغم ما يبديه من قوة أمام رعيته وحاشيته، فإن ثقبًا اخترق صدره وسكن روحه، فحمل له هذا الثقب كل نوع من الرياح.

100

– ماذا بك يا جلالة الملك، تمر الليالي فلا تنام، وإن نمت لدقائق صحوت منتفضًا.

– لا أعرف يا سلطانة، يأتيني النوم فأستعد له فيهرب. أشعر في لحظة بأنه يملكني فما أن أستسلم حتى يغيب بلا رجعة.

– لا بد أن هناك ما يقلق منامك ويشغل بالك – تقول المرأة بخبث.

– لا أتوقف عن التفكير في أهل المملكة، لا أعرف ماذا أصابهم، كانوا طيبين ومطيعين، يوقرون ملكهم ويقدرون حراسنا، ثم حدث ما حدث، تمرد وثورة ودماء، وها هم الآن يختفون عن الأنظار.

– تمردوا وثاروا لما عجزوا عن دفع الجباية يا سلطان، ثم جاء اختفاء

أبنائهم ليزيد ألمهم. لا تنس أيضًا أن معاقبة الشيخ بفقأ عينه كانت قاسية عليهم.

– للمملكة حقوق على الجميع، والجباية واجبهم. أنا أوفر لهم حاجاتهم وأضمن لهم أمنهم، وهم لا يريدون تسديد ما عليهم.

– ألا ترى يا جلالة السلطان أن اختطاف ذويهم من دون أن يعرفوا أماكنهم ومن دون أن يقفوا أمام القاضي أثار تمردهم. الناس بطبيعة أحوالهم لا يحبون التمرد على السلطان ولا يميلون له، ويسعون في كل الطرق لتجنب ذلك.

– وأنا من حملتهم على التمرد؟

– أنت كسلطان تدير المملكة من مكان لا يعرفون عنه شيئًا، لأنهم لا يعرفون كيف تدار المملكة، لكن الحقيقة أنهم يجب أن يعرفوا كيف تدار المملكة. تذكّر معي أن مملكة تملك ما تملكه مملكتنا لا ينبغي أن يعاني أهلها من ضيق ذات اليد، ومملكة مثل مملكتنا ليس بها إلا عدة آلاف يعرف كل منهم الآخر لا ينبغي أن يتعرض أبناؤها للخطف والقتل لمجرد تمردهم.

– أنتِ إذن مع أهل المملكة ضد السلطان.

– أنا زوجة السلطان ويهمني أن أظل زوجته وأن يظل السلطان سلطانًا. لكن ليتحقق ذلك يجب أن يسود العدل.

– العدل يا زوجة السلطان أن تطيع الرعية سلطانها، أن يزرعوا ويحصدوا

ويدفعوا الجباية. أن يصنعوا الأبواب والشبابيك ويدفعوا الجباية، أن يشيدوا البيوت ويدفعوا الجباية، أن يعملوا بالحدادة وبالبيع والشراء ويدفعوا الجباية. وأن يخطئوا ويُعاقبوا ويدفعوا الجباية. هكذا يجب أن تدار المملكة. أنا السلطان، وهم الرعية.

– لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها يا جلالة السلطان، والعدل بيّن كالشمس، والظلم بيّن كالشمس. ومن زوجة تحبك، لا القتل ولا الخطف ولا التلصص على الناس يمكن أن يصنع مملكةً تعيش في سلام.

– هذه وسائل من أجل تحقيق غاية أكبر وهي الأمن.

– لو منحت للناس الحياة لن يختاروا الموت. وأنت يا جلالة السلطان هددت حياتهم ومثّلت الموت أمامهم، فاختاروه.

– لا، لم يختاروا الموت. اختاروا الاختفاء لي ذراعي، لكنهم لن يستطيعوا، وغدًا سيخرجون من مخابئهم مكرهين.

– غدًا، يا جلالة السلطان، لو خرجوا من مخابئهم فلن يكون ذلك لإرضائك والتأسف على ما جرى. غدًا يا جلالة السلطان، لو خرجوا من مخابئهم سيكون لهدم سلطانك وتقويض مملكتك.

– لا أحد يستطيع تقويض مملكتي، لدينا حراس وجنود وأسلحة، لدينا قوة بوسعها أن تفتك بأهل المملكة قبل طرفة عين.

– ولا كل أسلحة الكون يمكن أن تقضي على أهل المملكة، ولا كل

جنود الكون بوسعهم أن يقضوا على شعب مهما بلغ عددهم. يا سلطاني، أين المفر من لعنة الدم إن أصابتنا؟ وكم من جنودك حاولوا إزالة الهرم الرمادي وعين الشيخ التي تعتليه فعجزوا؟ يا سلطاني، ما أصعب التراجع عن الظلم وما أجمله، وما أسهل التمادي في الظلم وما أقبحه.

101

لكن السلطان لم يعد ينام. يفكر ليلًا ونهارًا في اختفاء أهل المملكة، ويراجع منذ البداية كيف بدأ كل شيء. الأصوات القليلة التي تمردت على الجباية، الأصوات القليلة التي تمردت على التلصص عليهم، الأصوات القليلة التي تمردت على سوء معاملة الحراس لهم، الأصوات القليلة التي تمردت على حرق الكتب والفتك بالشيخ الذي لم يرتكب ذنبًا إلا الكتابة، الكتابة فحسب، كل هذه الأصوات صارت فجأة بالآلاف، والعنف الذي مارسه في البداية على استحياء، بات قانونًا، يقول لنفسه بصوت عالٍ يسمعه الشيخ من قبوه، كل شيء بدأ من الشيخ، من التاريخ الذي كان يدوّنه ومن قائمة المختفين التي كان يعدها، كل شيء بدأ من الشيخ حين أردتُ أن أبث الخوف في الجميع بمعاقبته أمامهم فتحقق عكس ما أردتُ، بثت فيهم الشجاعة والجرأة، كأن العنف لا يمكن أن يؤدي إلى سلام. السلطان

لا ينام، يتجول في غرفته الرحبة، يتطلع من نافذته الكبيرة إلى حديقة، ينزل سلالم القصر، يجلس في فنائه الواسع، يخرج إلى الحديقة، ومن هناك يشاهد شقشقة الفجر الأولى وهو يفكر ماذا سيفعل لو استمر أهل المملكة في بيوتهم من دون الخروج لاستلام قوتهم وقوت أطفالهم. لا أريد أن يموتوا، يقول لنفسه بغضب، أريد أن يطيعوا في صمت. ومن مكانه أمام الجدار المضيء، يرد عليه الشيخ: "وما الموت إلا الطاعة في صمت يا سلطان". ينتفض السلطان لأنه سمع الصوت، سمع صوت الشيخ ولا يعرف كيف، سمع صوت الشيخ الذي قتله حراسه. قتله الحراس لكنه لم يمت. لم يمت لأن شيئًا لا يموت. لم يمت لأن ثمة أشخاصًا لا يموتون. يرد السلطان على صوت الشيخ "أريد أن يطيعوا لأنهم لا يعرفون شيئًا عن المخاطر، المخاطر التي تهدد المملكة من الممالك الأخرى، ولا يعرفون شيئًا عما أتكبده أنا وحدي كسلطان لهذه المملكة". ومن مكانه أيضًا أمام الجدار المضيء يرد الشيخ "أهل المملكة ليسوا قطيعًا لتسوقهم بعيدًا عن المخاطر، لأن أهل المملكة هم من يحمون المملكة. اعترف لنفسك يا سلطان، اعترف بأنك لا تريد أن تسمع إلا صوتك، ولا تبغي أن تفعل إلا ما يمليه عليك عقلك وإن أخطأ. اعترف لنفسك بأنك تبحث عن مجدك والحفاظ على سلطتك وعرشك، وإن كان مقابل ذلك دماء أهل المملكة وحيواتهم".

102

تجول السلطان في الحديقة، ثم تجرأ وخرج بمفرده من القصر. أشار إلى حراسه أن اثبتوا في مكانكم، لا أريد أحدًا بصحبتي. وراح يتجول في الشوارع، يتجول بخطى ثقيلة على الأرض، في الشوارع التي لا تدب فيها إلا أقدام حراس قليلين، حراس لم يعد أحد يعرف ماذا يحرسون ومن ماذا يحرسونه. يتجاوز القصور والبيوت المحاطة بقصره، بينما يرمقها بنظرة مَنْ يتساءل إن كان كل ذلك سيستمر أم ستقوضه الموجات الأولى كقلعة رملية على شاطئ. يقطع الحاجز الوهمي بين بيوت أهل السلطة وبيوت أهل المملكة من العوام. وهناك يجد كل النوافذ والأبواب موصدة كما كانت، حتى بدا له أنها جدران بلا أبواب. مر جوار البيوت على أمل أن يسمع صوتًا، لكن لا صوت ولا حركة، كأنهم كانوا أشباحًا واختفوا في أرض أخرى بعد إلقاء تعويذة عليهم. تساءل حتى متى سيحتملون الجوع، ولو نفدت زيوت مصابيحهم، حتى متى سيحتملون الظلام.

قد يبدو أن رحمة السلطان تحركت، لكن لا يصح أن ننخدع في سلطان أمر بقتل أهل مملكته. قد يحزنه فحسب أنه سلطان بدون رعية، أن رعيته هم جنوده أنفسهم.

103

الحمد لله أن الحراس الثلاثة كانوا قد انتهوا من توزيع المؤن قبل وصول السلطان بساعة واحدة، هذا ما قالوه لأنفسهم حين رأوه يقترب وهم يقفون بجانب عرباتهم يستريحون من شقاء الحمل والتفريغ. حيّاهم واقترب منهم، كانوا الوحيدين بالشارع في هذه الساعة، كانوا الوحيدين بهذا الجزء من المملكة في هذه الساعة. واحتاجوا إلى ثوانٍ ليميّزوا أنه السلطان، ليميزوا أو ليصدقوا. وبعد تبادل نظرات مرتابة، حيّوه بترحيب ووجل.

- كيف حال أهل المملكة يا حراس؟

- لا نسمع لهم حسًّا ولا خبرًا يا جلالة السلطان، قال الأول.

- منذ اختفوا في بيوتهم ورفضوا الخروج لاستلام غذائهم لا نعرف عنهم شيئًا، قال الثاني.

– ولا حتى نوافذ بيوتهم يفتحونها، ولا حتى يُهوُّون البيوت، قال الثالث.

تأملهم السلطان بريب، كأنه حدس في نبرة نفيهم تأكيدًا، محاولة لمداراة شيء.

– وكيف يعيشون بدون غذاء، لقد مرت أيام وأسابيع على حالهم هذه.

– والله يا جلالة السلطان ما رأينا أعجب من أهل هذه المملكة، لقد غابوا حتى ظننا أنهم تبخروا، كأنهم لم يكونوا هنا أبدًا، قال الثاني.

– مع ذلك نرفع كل يوم تقريرًا عن الحركة في المملكة إلى رؤسائنا، نعم لا نضيف شيئًا لكننا نؤدي عملنا، قال الثالث.

– منذ اختفوا في بيوتهم لا نرى شيئًا، كأن الأرض انشقت وبلعتهم، قال الأول.

– ونحن تحت أمر جلالتك، نفعل ما تأمرنا به في الحال واللحظة، قال الثالث.

– اطرقوا هذا الباب وقولوا إن السلطان يريد الاطمئنان على أهل البيت.

تبادل الحراس النظر باستغراب، جلالة السلطان بنفسه يأمر بطرق باب أحد العوام، يا للمعجزة. ثم خطوا خطوة وانتابهم القلق، أيكون ذلك فخًا نصبه لهم السلطان ليكشفهم؟ لكن، ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟

– يا أهل البيت، لقد جاءكم السلطان بجلالته ليطمئن عليكم، افتحوا

الباب، قال الثالث، بينما كان يدق أحد الأبواب، وخلفه وقف الحارسان الآخران.

لكن لا حس ولا خبر، لا حركة ولا نفس. يكرر الحارس النداء، ولا مجيب. يطرق الحارس الثاني بابًا آخر ولا مجيب. يدق الحارس الثالث الباب، ولا مجيب. يتلقى السلطان الرسالة ويسير في غضب، أنهم لم يعصوه فحسب، بل وأهانوه عندما دق بيوتهم. نظراته كانت تقول اقتحموا البيوت، كيف لا يفتحون للسلطان ولا يستجيبون، لكنه لم ينطق بشيء، وسار يجر غضبه.

هذا ما فهمه السلطان، لكنها ليست الحقيقة، إذ سيعرف السلطان بينما بعد لماذا لم يفتحوا الأبواب.

104

ليس صدقًا أن السلطان وحده مَن تصله أخبار المملكة، إذ أن أخبار السلطان نفسه تذهب لآخرين. من هنا، عند عودته، كان الوزراء والمستشارون في انتظاره عند باب القصر، يحيطهم حراسهم وحراس السلطان ذاته.

– أريد أن أعرف إلى متى سيظل أهل المملكة مختبئين!

تحدث السلطان بغضب إلى كل الواقفين، تحدث بعد أن أدرك اللوم في عيونهم أن يا سلطان كيف لك أن تفعل ما فعلت، كيف لك أن تدق أبواب عوام المملكة، ألم يكن ممكنًا أن ترسل في طلبنا فنحضر لك من أردت، أو حتى أُرسل الحراس يا رجل. لكن الكلمات السابقة لم تجد ممرًا تخرج إليه، وكان طلب السلطان قاطعًا. ومن مكانه أمام الجدار المضيء، يشاهد الشيخ عينين غائرتين من أثر الأرق، وحالة تشبه حالات الملانخوليا التي تصيب العقل عند الحبس أو قلة النوم. والوزراء والمستشارون في حيرتهم لا يعرفون

بماذا يجيبون السلطان، فقط اتبعوا خطوته إلى داخل القصر لعله يهدأ.

– وماذا يضيرنا يا جلالة السلطان من غيابهم؟ يقول كبير الوزراء.

– يضيرنا أنّا لا نعرف ماذا يدبرون لنا.

– يا مولاي، كيف يدبرون شيئًا وكل منهم في بيته، إذ ليدبروا يجب أن يجتمعوا، وهم لا يجتمعون ولا يخرجون من بيوتهم.

– ربما يتراسلون عبر حمام مراسلة، ربما يخرج أحدهم بخطة سرية يرسلها إلى الجميع، ربما يلتقون على أسطح بيوتهم. من أدرانا يا وزير؟

– يا جلالة السلطان، الشوارع والحارات، أسطح البيوت والأبراج، كل ما يحدث في المملكة وما لا يحدث فيها، كله يصلنا في تقارير نرسلها إلى جلالتكم وندرسها بعناية. ما فعله أهل المملكة، كما يقول وزير البطش، أنهم فرضوا على أنفسهم سجنًا اختياريًا، وخير ما فعلوا، إذ ادخروا لنا تشييد سجون لهم، ووفروا لنا حراسة وغذاءً. أما كيف يعيشون داخل بيوتهم، فنحن لا يهمنا كيف يعيشون، ولا نشعر بذنب لأننا لم نسجن ولم نمنع الطعام. إن كانوا فضّلوا الموت فهو لهم، مَن يمكن أن يمنع أحدًا من الموت إذا أراد؟

– أتفق مع كبير الوزراء يا جلالة السلطان، هم اختاروا الموت فالموت لهم، فإن ماتوا في بيوتهم حوّلناها مقابر، وإن قرصهم الجوع فخرجوا فليلتزموا بقانون المملكة وليخضعوا لأوامر السلطان، قال وزير البطش

بقلب حديدي بينما كان يعانق سيفه براحة يد.

– راقبوا البيوت جيدًا، أريد أن أعرف ماذا يفعلون. ارسل أحدًا من الحراس ليتسلق الأسطح ويأتي بخبر. أريد أن أنام وعندي جواب عن سؤال ماذا يفعلون.

لا يريد السلطان، كما قال، أن يموت أهل المملكة، ليس رحمة ولا رأفة كما قد نظن، إنما ليقينه التام أنه يعمل من أجل مصلحتهم. الصدمة التي يتحدث بها، سواء مع زوجته أو وزرائه، تكشف عن سلطان موهوم أكثر منه لصًا، لديه استغراب مدهش من تمرد أهل المملكة عليه بينما يظن أنه ينقذهم من الجحيم وأنه مَهديهم المنتظر. هذه حالة لا علاج لها.

105

يمر السلطان والوزراء والحراس والجنود على السيدة العجوز الجالسة تحت شجرة التوت فلا يبصرونها، مع أنها امرأة تعرف كل شيء. لو رأوها، لتراجعوا عما يفعلون.

106

يدور الولد ابن الشيخ في المملكة وحيدًا، يقترب من ميدان الهرم الرمادي، يدخل بيوت أهل المملكة، ويستقبلونه بترحيب، ويمر من أمام القصر، فلا أحد يقترب منه أو يسأله عن شيء. بينما يقوم بمهمة محددة: تدوين ما يحدث.

107

أمُ أحد الحراس انتقلت إلى بيت حارس آخر وتزوجت بأبيه، وإخوة الحارس الثالث انضموا إليهما في بيت واحد ويواصلون الحفر. البيوت باتت مفتوحة بعضها على بعضها، وتأسيس مدينة جديدة تحت الأرض يجري على قدم وساق. الآن أهل المملكة أصبحوا من يعرفون كل شيء، ولا السلطان ولا عيونه يعرفون شيئًا عما يحدث.

108

أمام الجدار المضيء، يشاهد الشيخ أهل المملكة يسيرون في ممرات تحت الأرض، من دون أن يعرف عن يقين إن كانوا قد وصلوا إلى الممرات بعد حفر أدى إليها أم حفروها هي ذاتها. ما يشاهده الآن ممرات طويلة كأنها شوارع، ومن الشوارع تخرج حارات ضيقة، والممرات والشوارع والحارات تمر تحت المملكة، تحت البيوت. هم الآن صاروا يتجولون براحة، واكتشفوا أن الهواء هناك أكثر رطوبة ونقاءً.

109

أمام الجدار المضيء، يجلس الشيخ ويتأمل كل ما يحدث. لا يدرك في الحقيقة، رغم أنه يرى كل شيء ويسمع كل شيء، ماذا يريد أهل المملكة بالتحديد. يبدو، بالطبع، أنهم قرروا أن يعيشوا في مدينة بديلة، في عالم موازٍ لعالم المملكة، في بُعدٍ آخر لا يتحرك فيه إلا هم، لكن وماذا بعد؟ هل يتطلعون إلى الحياة هناك إلى الأبد؟ أم أن لديهم خطة أخرى للخروج؟ الآن يراهم ينقلون أثاثات بيوتهم القليلة والمتواضعة إلى قبو يشبه القبو الذي يعيش هو نفسه فيه، ويصنعون من التراب سلالم للصعود والهبوط، ويحملون التراب إلى بيوتهم نفسها، وبالتراب يكسون صحن البيت وغرف النوم ويسدون الأبواب والنوافذ، إلا جزءًا من نافذة صغيرة، يستخدمونها لتمرير احتياجاتهم. هل هو تمرد أم هروب؟ يحتار الشيخ في تسميته، لكنهم على أي حال اختاروا عدم إراقة الدماء. لا بد أنهم فكروا أن السلطان

وحاشيته يتطلعون إلى السيطرة على المملكة، فليسيطروا عليها. فكروا أن السلطان يريد استعبادهم، وبما أنهم لا حيلة لهم، فطريقهم حينئذ هو الاختفاء. الاختفاء هو خير عقاب.

110

يفكر الشيخ أن لو كان أهل المملكة من استطاعوا شق الممرات تحت الأرض، سيكون ذلك بمثابة معجزة، كأن يد الله كانت معهم. ولو كانت الممرات موجودة من قبل وهم فقط قد حفروا لأمتار قليلة حتى عثروا عليها، فذلك يعني حقيقةً أن مدينة أخرى كانت هناك، في أرض المملكة نفسها، كما تقول الأساطير، وأن هذه المدينة قد هلكت ذات يوم وجاء عاليها سافلها. تحكي الأسطورة التي كثيرًا ما سمعناها من دون أن نصدقها أو نكذبها أن قومًا كانوا يعيشون هنا في زمن قديم، كانوا يعيشون في سلام ووئام، حتى جاءهم ملك أعرج ومجنون. أمرهم الملك في البداية أن يسيروا على ساق واحدة، واختار لهم الساق اليسرى. حاول أهل المملكة أن يطيعوا، غير أنهم كانوا يتساقطون بعد عدة خطوات، ثم كان الملك، من فوق تبّة عالية، يأمر حراسه الذين يسيرون أيضًا على ساق يسرى، بقطع ساق كل من يقع

ولا يوفّي بالعهد. حينها اخترع أهل المملكة لعبة الحجلة ليتدربوا، وظلوا يلعبونها، كبارًا وأطفالًا في صحون بيوتهم أو فوق أسطحها، لكن ذلك لم ينفعهم كثيرًا، إذ يمكن السير بساق واحدة لمسافة خطوات، فلنقل أمتارًا، لكن في المسافات الطويلة كيف للناس أن يسيروا هكذا؟ ومع مرور الأيام تزايد عدد المتساقطين، ولأن الحراس والدَرَك كانوا بالآلاف، ولأنهم كانوا موزعين في كل ركن وكل جانب، لم يكن بوسع أحد من الساقطين الهروب. فلما تزايدت السيقان المبتورة، بدأ الملك يفكر في ما سيفعله بكل هذه السيقان، حينها خطر له أو شار عليه وزيره بأن يصنع مقبرة جماعية للسيقان المبتورة. تحكي الأسطورة أن الملك أصدر فرمانًا ملكيًا بأن يعمل كل أهل المملكة من عوام وحراس وجنود، من رجال ونساء وأطفال، في صنع هذه المقبرة. حتى الوزراء والمستشارون، الذين لم يُستثنوا من السير على ساق واحدة، كانوا يعملون في الحفر أو يشرفون عليه. ومن شقشقة الفجر حتى غروب الشمس، غدت المملكة لا تكف عن الحفر، بساق واحدة أيضًا. حفروا عميقًا، وصنعوا مقبرة دائرية تطوّق المملكة كلها، وكانت المقبرة، من دون أن يعرف أحد هل كانت بخطة أم محض صدفة، في شكل مدينة، مدينة لها شوارع وحارات، مدينة لها ميدان وبيوت صغيرة. ربما فكر أهل المملكة أن الساق المبتورة ستشتاق ذات يوم إلى ماضيها، وذات صباح سيحلو لها، بدافع الذكرى، أن تسير وتتجول حتى لا تتوقف الدماء، غير الموجودة في أوردتها بالطبع، عن السير في دورتها الطبيعية. حينها فكر أحدهم أن يصنع في جدران المقبرة مشكاة، كأنها غرفة للساق، كأنها مضطجعها. فلمّا راقت

الفكرة للجميع، بدؤوا يشقون في الجدران مشكاوات، فبدت من بعيد كبيوت متراصة تطل على ميدان. بعد كثير من العمل، لم تحدد الأسطورة إن كان يومًا أم شهرًا أم سنة، بدأ أهل المملكة والحراس، يدًا بيد، يجمعون السيقان المبتورة من قبل، المحفوظة ربما في مخازن الحصاد أو الملقاة على ضفاف النهر، وألبسوها فردة واحدة من سروال، ونعلًا واحدًا، ثم حملها أهل المملكة وحدهم إلى المقبرة، إلى المشكاوات. ظلوا يرصون، وعلى مهل، مئات السيقان، كلًا في مشكاة، فلما أقبل الليل أضاءت المقبرة، وانتبهوا إلى أن النور يأتي من المشكاوات، يسطع من السيقان المبتورة ذاتها. فقرر أهل المملكة أن يحتفظوا بالسر لأنفسهم فلا يُطلعون عليه الحراس. واستمر فرمان الملك ببتر السيقان ما لم يسيروا على ساق واحدة، واستمر أهل المملكة في دفن سيقانهم، يلفونها في فردة سروال، يمنحونها فردة نعل. فلما لم يتبقَ واحد من أهل المملكة، من عوام وحراس ووزراء ومستشارين، إلا وبات بساق واحدة، حدث ما لم يكن يخطر ببال. وفي ليلة شديدة السواد، كأن القمر هرب من السماء، كأن النجوم هربت من السماء، خرجت السيقان كلها، في أسراب وصفوف، من كل جوانب المملكة وأركانها، وغدت تركض من اليمين إلى اليسار ومن الشمال إلى الجنوب، من الشوارع إلى الحارات، من الأطراف إلى الميدان الرئيسي، مضيئةً كانت وسريعة الخطى، بضجيج خطوات أيقظ أهل المملكة أنفسهم وحراسها وملكها. ثم حدث أن خرج أهل المملكة من بيوتهم، كلهم خرجوا من بيوتهم، كلهم عجزوا عن فهم ما الذي أخرج السيقان من مقابرها ومشكاواتها، ولم تمهلهم السيقان للتفكير،

باتت تتقافز على رقاب الواقفين وتمص دماءهم، آلاف السيقان المضيئة قتلت الملك والوزراء والمستشارين والحراس والدَرَك، فسعد أهل المملكة أن انتقمت لهم السيقان. غير أن السيقان، بحسب ما تقول الأسطورة، نطقت وهي تقتل أهل المملكة أيضًا: أما أنتم فنقتلكم لأنكم لا تستحقون الحياة. تقول الأسطورة إنه لم ينجُ من مذبحة السيقان إلا الأطفال دون الحُلُم، فحملتهم بعض السيقان وعبرت بهم إلى الضفة الأخرى من النهر، وألقت بهم في عمق الصحراء ليبدؤوا حياة جديدة، ثم عادت السيقان وواصلت هدم البيوت والقصور حتى غدت خاوية على عروشها. تقول الأسطورة إن السيقان ربما عادت إلى مقابرها، إذ ظلت المملكة مهجورة لسنوات طوال، وإن الأطفال أنفسهم من تناقلوا الأسطورة. بعد ربع قرن أو يزيد، جمع الأطفال أنفسهم وعادوا إلى المملكة المهدومة وكانت لا تزال خرائب. فشيدوا فوق المدينة القديمة مدينة جديدة.

111

لم يكن الشيخ وحده من يشاهد ما يحدث في المملكة، كان بجانبه أبو العلاء المعري وبورخس، مع وجود متقطع لـ دانتي. منذ جاؤوا ليقرؤوا من **كتاب الأحلام** لم يبرحوا أماكنهم، لكن أحدًا منهم لم يكن يلتفت إلى الآخر منذ ظهر السلطان والحراس وأهل المملكة. كل منهم كان يبدو مأخوذًا بما يرى. لكن في لحظة ما، صاح بورخس متعجبًا:

– إنهم تماثيل شمعية.

– ماذا تقصد بذلك،؟سأل أبو العلاء.

– تماثيل مصنوعة من الشمع يا مولانا. هؤلاء الذين يحكمون ليسوا إلا تماثيل شمعية. وهذه التماثيل الشمعية حوّلت أهل المملكة إلى تماثيل شمعية، وأهل المملكة، لو لاحظت، استعادوا أنفسهم من حالة التماثيل حين وصلوا إلى القبو، أجاب بورخس.

كان الشيخ يستمع لتفسير بورخس وكأنه فتح أمامه أفقًا جديدًا.

112

خرج الشيخ ليتنزه في القبو، كانت أسطورة المدينة القديمة تملؤه من دون أن يعرف كيف استطاعت الذاكرة استحضارها في لحظة التأمل، في لحظة الحيرة أمام ممرات أهل المملكة. لم يفكر الشيخ في الذاكرة كثيرًا من قبل، لم يفكر في كيف تعمل، في كيف تستحضر أو تتجاهل، بالطبع عمل كثيرًا على الذاكرة، ساعدته في كتابة الكتب، في استحضار أحداث من طفولته البعيدة، لكنها كانت مستخدمة، إن أمكن أن نقول ذلك، لأغراض علمية. هو الآن يشعر بأن ذكرى المدينة القديمة ذكرى شخصية، كأنها حكايته هو ذاته، حكاية هويته لو أمكن استخدام هذه الكلمة. اللافت، أن أهل المملكة لا يبدو أنهم يتذكرونها، بل ربما لا يعرفونها من الأساس. يحبسون أنفسهم في صمت، يحفرون في صمت، ينزلون القبو في صمت، يسيرون في الممرات في صمت. الصمت هنا لم يكن السكوت عن الكلام،

بل السكوت عن نواياهم، عن أفكارهم، كأن ثمة طريقة أخرى للتفاهم لا يدركها أحد من خارجهم. من هنا يقف الشيخ في حيرة، لكنه يعود ليسأل نفسه إن كان هو قد تذكر الأسطورة في لحظة ما، فلِمَ لا يتذكرونها هم أيضًا في لحظة أشد عسرًا، وبينهم العجائز الذين لا بد قد سمعوا الحكاية من أجدادهم. الشيخ يسير الآن في الممر، يرى أبو العلاء يسير هناك مع ليلى ورامز وهند، وفي ركن ما يرى أحمد، مختبئًا في ركنه المعتاد، بأوراق وأقلام وكثير من الشرود، يكتب ويقرأ بلا انقطاع، كأمر إلهي لا ينبغي مخالفته. حين اقترب منه، توقف الشاب عن الكتابة، بدا مأخوذًا كأنه يشعر بوجود الشيخ من دون أن يراه، وظل يتلفت حوله حتى ابتعد الشيخ، ربما لرغبته في الصمت، وربما لرغبته في عدم اختراق مساحة صديقه الجديد. واصل الشيخ السير حتى خرج من الممر الطويل المتشعب إلى أرض بعيدة، بعيدة جدًا، وكانت كأنها ضفاف نهر، بسقف سماوي وبنجوم مرصعة ومضيئة. لم يكن ثمة نهر، لكن كان ثمة حورية، ثمة مجموعات من أناس يعرفهم من دون أن يتذكر جيدًا من هم، كأنهم صور من عالم بعيد. وهناك كانت ليلى، زوجته الأولى، أم ابنه. هناك كانت جميلة كعادتها، شاردة كعادتها، تشع طمأنينة وحبًا. لم يصدّق الشيخ، لكنه حين اقترب، اقترب جدًا، كانت ليلى تنظر إلى أفق بعيد، أفق ربما لا يراه هو. ثم سارت كأنها تطير. كأنها مجذوبة إلى عالم آخر.

113

لا يعرف الشيخ كيف عاد إلى قبوه، كان كأن نصل سكين شق صدره. الطريق الطويلة التي سارها في ساعات عاد منها في دقائق. مَن قال إن الزمن شيء آخر غير الشعور به؟ وحين شعر بعمق النصل في صدره، مد يدًا وتحسس صدره براحتها ليرى إن كان ثمة دم، فوجد دمًا. لماذا لم تلتفت إليّ ليلى؟ لما أعرضت عني؟ يعرف الشيخ أن أشد عقاب ممكن هو عدم النظر، هذه الرسالة المبطنة بالاحتقار، بالتجاهل. يتذكر أن عقاب الله للمذنبين يوم القيامة هو الإعراض بالنظر عنهم. لم أعرف يا ليلى من قتلك حتى وصلتُ إلى القبو، ولو كنت عرفت، هل كان بوسعي أن أثأر؟ أن أسفك الدم؟ أن أعاقب بالقتل من قتل؟ كيف يا ليلى أن أفعل مثل القاتل حين أدّعي أني ضد القتل؟ ما الفارق بين وبينه إذن؟ لكن ليلى لم تسمع، وزوجته الثانية أخبرته بالندم، وغدت أمًّا لابنه ولابنها.

– سرقتْ مني كل شيء يا شيخ. سرقت حياتي، سرقت ابني وزوجي، سرقت عائلتي وبيتي. ماذا تريد أن أفعل يا شيخ؟

صوت ليلى أجابه، صوت ليلى ملأ القبو. صوت ليلى الناعم أدمعه. حينها تطلع إليه أبو العلاء من الباب الفاصل بين القبو والممر الطويل.

– ماذا بك يا شيخ؟

– أريد أن أعرف يا مولاي أين أنا؟ وكيف تُكشف لي بعض الحقائق وبعضها يُحجب؟

– أنت في القبو المسحور يا شيخ، وبقدر بصيرتك ترى، وبقدر بصرك تُحجب.

– والأشياء المحجوبة، لماذا تُحجب؟

– تحجب لأن عماك لم يكتمل، وبالتالي لم تكتمل بصيرتك. لقد خسرت عينًا واحدة، وحين خسرت عينًا كسبت نصف البصيرة. عينك الأخرى السليمة، عينك الأخرى التي لم يصبها سوء، هي نفسها العين التي لا ترى المحجوب، لا ترى إلا ما يراه الناس بالمملكة.

– القبو المسحور؟

– يسمونه هكذا، لكنه قبو المبصرين. وكل من تراهم هنا هم من فقدوا عيونهم في دنيا البشر.

– حتى دانتي وابن رشد؟

– لا، هما لم يفقدا بصريهما لكنهما اكتسبا البصيرة كمنحة إلهية، مع ذلك فوجودهما هنا كضيوف.

– ونحن في القبو المسحور؟

– هل كان يمكن أن ترى ما ترى لولا أنك في القبو المسحور؟

114

دامعًا لا يزال، مدهوشًا لا يزال، مدّ يده من مضطجعه وشرع يقرأ في **كتاب الأحلام**.

92 - يمكن أن أقول الآن إن المكتبة التي أجلس فيها، المكتبة التي عثرت فيها على المخطوط القديم، المكتبة التي تضم بعض معارف العالم، هي مكتبة ماما الحقيقية وليست مكتبة بابا كما كنت أظن. ليس لديّ أدلة كبيرة على ذلك إلا اسم ماما مرسومًا بالخط الثلث على الصفحة الأولى بعد غلاف كتاب بعنوان "البُعد الثاني": ليلى. هكذا باختصار: "ليلى"، بدون اسم أب ولا لقب، بخط رقيق بقلم حبر أظنه خط ماما نفسه، رغم أني لم أر خط ماما أبدًا. ظني يتقوى بوجود العديد من الكتب التي تشبه ماما، ماما كما عرفتها بعد موتها، ماما كما عرفتها من الصور، من نظرة عينيها تحديدًا إلى أفق لم يكن أحد يراه إلا هي، وربما المصور. من بين هذه الكتب كتاب "روضة التعريف بالحب الشريف" للوزير لسان الدين بن الخطيب، و"رسالة الغفران" لـ أبو العلاء المعري، و"الكوميديا الإلهية" لـ دانتي أليجييري، و"تهافت التهافت" لـ ابن رشد، و"الشعر الجاهلي" لـ طه حسين، و"قصص" لـ خورخي لويس بورخس، الذي يضم قصة "الموت والبوصلة".

93 - يتأكد ظني بأنها مكتبة ماما، التي تسمى ليلى أيضًا مثل حبيبتي، لأن هؤلاء الكُتّاب هم أصدقاؤها الذين قابلتُهم في القبو في إحدى رحلاتي الليلية معها، وأكثر من كانت تحبهم، بحسب ما أفهمه من ملحوظات مدوّنة على حواف الصفحات، هم أبو العلاء وبورخس وطه حسين، وما يجمعهم الثلاثة هو العمي، أو البصيرة كما أعتقد. البصيرة لأني

اكتشفت أن البصيرة هي هذه الرؤية المختبئة وراء حاجز من البصر، فلا تنطلق إلا بانطفاء البصر ذاته. كما يشير إلى ذلك المخطوط القديم، المخطوط الذي عثرت عليه متواريًا في بيتي من دون أن أعرف، حتى الآن على الأقل، كيف وصلني. ما يؤكد لي صحة إشارة أبو العلاء أن بصيرتي انطلقت بالفعل بعد أن فقدتُ عيني اليسرى، حتى لو كانت عين ماما اليسرى لا تزال موجودة في حدقتي، وحتى لو كانت نصف بصيرة لأني لا زلت أرى بعيني اليمنى. مع ذلك أظن أن عين ماما اليسرى، التي أرتديها الآن كعدسة لاصقة، ذات علاقة بفكرة البصيرة. لست متأكدًا، لكني على الأقل، حين أغمض حدقتيّ، حين أتخلى عن الرؤية، أبصر، ربما لذلك أحلامي أكثر صدقًا من الواقع، أو أن أحلامي هي الواقع الآخر المختبئ وراء الواقع المادي والسطحي. من أجل ذلك أفكر أن أُسَمي الكتاب الذي أكتبه الآن "كتاب الأحلام" لأن الأحلام ليست فحسب ما نراه في المنام، إنما كل ما نبصره حين نغمض أعيننا، أو كل ما نبصره وراء الواقع. بهذه الطريقة أفهم مسرحية "الحياة حلم" لـ كالديرون دي لا باركا، إذ ليس المقصود أنها حلم منامي، إنما الحياة الحقيقية تقبع خلف هذا الحاجز الذي نراه بالرؤية، ولا نصل إليها إلا عبر البصيرة. هل يمكن فهم قصة "الأطلال الدائرية" لـ بورخس بهذه الطريقة؟ أن الحياة ليست حلمًا داخل حلم داخل حلم، وإنما طبقات متعددة من الواقع لا نرى منه غير السطح، غير قمة جبل الثلج؟

ربما لهذا السبب نفسه نحلم، بمعنى أننا نتجاوز حدود الواقع السطحي عند المنام، لأننا تخلينا عن السطح وسعينا إلى الطبقة الأخرى، أو للبُعد الآخر.

94 - عبرتُ الممر ووصلتُ للصالة، كان التلفزيون لا يزال مفتوحًا ويعرض مكانًا لم أتعرف عليه في البداية. المكان كان مدينة قديمة، مدينة مهدّمة، محض خرائب لم يتبق منها شيء إلا دلائل على حياة سابقة، وكان مئات الرجال يصلون إليها في أسراب، كأنهم مأمورون بشيء لم أتبينه في الدقائق الأولى. الكاميرا تتركز على وجوه عجائز في مقدمة الصفوف، ومن خلفهم شباب في أعمار مختلفة. العجائز يقفون في وسط ميدان زائل، ويشيرون بسبابتهم إلى الخرائب ويقولون كنا هنا، هنا ولدنا، وهنا رأينا خراب كل شيء، ومن هنا نجونا بمعجزة إلهية. كان الشباب المرافقون ينصتون باهتمام، باهتمام من يعرف الحكاية والآن يتمها بالوصول إلى الفصل الأخير. لا نعرف هل عادت السيقان المبتورة إلى القبو أم أنها هربت إلى أرض أخرى، قال عجوز بظهر أحدب. السيقان لا يمكن أن تهجر المدينة يا أخي، لا بد أنها عادت لتستريح في القبو، رد عجوز آخر من نفس عمر الأول وبنفس هيئته. على أي حال، سنشيد المدينة من جديد بدون الاقتراب من القبو ولا الحفر، ومقابرنا الجديدة ستكون خارج المدينة، قال شاب يبدو أنه مُطّلع على الحكاية بالفعل.

95 - وفي وسط الميدان الـخَرِب، بين أطلال من كل جانب، فَرَدَ المعماري خريطة كبيرة لم أعرف هل هي خريطة المدينة الفانية وسيحاكيها في البناء، أم خريطة مدينة المستقبل، مدينة جديدة لا تمت إلى القديمة بأي صلة إلا موقعها. وحوله كان مئات الشباب المستعدون، مئات النساء الجاهزات، لمد اليد بمجرد إطلاق صفارة البدء. هنا لن يكون لأهل السلطة ركن ولعامة الناس ركن، هنا سنعيش جميعًا معًا، نزرع ونحصد ونأكل بالتساوي، نبني ونصنع ونصيد الأسماك، قال المعماري، وأومأ الحضور بالموافقة. لن نحتاج إلى وزراء أو أمراء، لا مستشارين ولا عساكر درك، قال آخر.

96 - تنقلت الكاميرا بينهم وهم يشيدون البيوت ثم يزينون الميدان. كانت البيوت تطوّق الميدان من ناحيتين في شكل نصف دائرة، وفي وسط الميدان الدائري حديقة خضراء، حديقة أقاموا في منتصفها قاعدة هائلة لتماثيل تجسّد سيقانًا منفردة، تماثيل في شكل دوائر وفي حجم ساق بشرية ولونها. أثناء ذلك، كان العجائز، رجالًا ونساءً، يتجولون بالمدينة ويستريحون داخل أكواخ هي بيوت مؤقتة، ويحكون بأصوات خفيضة كيف تهدّم كل شيء. كان العجائز من اقترحوا تشييد تماثيل للسيقان، حتى تكون ذكرى لا يمكن محوها. أحد العجائز، رجل خمري بخطوط الزمن تصنع تغضنات غائرة في وجهه، يقول لزوجته، التي تشبهه كأنها أخت له، إنه لم ينم منذ أكثر من ستين عامًا، إنه كان

يتصنع النوم منذ خرج من المدينة ركضًا في صحبة السيقان، وإنه الليلة فقط سينام. والمرأة تنظر إليه نظرة من تعرف، كأنها طوال سنوات مرافقتها له كانت تعرف، وكأنها، بداهةً، كانت مثله. العجائز يرقدون على أرض طفولتهم، الأرض التي شربت دماء آبائهم وأمهاتهم، الأرض التي شربت طفولتهم وخلفت وراءها التجاعيد، لكنها، فوق كل شيء، الأرض التي تخلصت من جحيم الطاعة وآثرت الخراب على الخضوع.

97 - لا أعرف منذ متى لم أخرج من البيت، ولا أعرف في أي يوم أكون. كل ساعات البيت توقفت، والمساحة الفاصلة بين الليل والنهار، بين الصحو والنوم، بين الأيام ذاتها، تلاشت. حياتي التي كانت واسعة غدت مختصرة في مكتبة ماما والصالة والتلفزيون، واحتياجاتي انتهت حتى صرتُ زاهدًا في الحياة. مجرد رجل يقف على حافة العالم. الأكيد أني لم أسع إلى ذلك، غير أني وجدتُ نفسي في هذا المكان. الآن أتطلع من الشرفة إلى الشارع الرحب، على بُعد أمتار من هنا "إستوديو مراد"، بيت بابا الحقيقي، إستوديو يدخله الناس بهيئة كاملة فيتحولون إلى مجرد نيجاتيف في فيلم، وداخل غرفة تحميض يتحولون من نيجاتيف إلى صور بملامح واضحة، والصور تسجل لحظات زائلة لا يتبقى منها إلا لقطة كاشفة لحالنا في لحظة محددة من الزمن. وأنا الآن مجرد نيجاتيف، كنت مجرد نيجاتيف في فيلم مركون

وراء ستارة سوداء، لكني أوشكت على التحول إلى صورة ذات معنى، صورة ذات معنى بعد أن قضيت حياتي كلها صورة غائمة، صورة شبحية، صورة لا يمكن لأحد أن يتبين ملامحها. الآن أدرك كل ما حدث في حياتي بعد أن ابتعدت عنها، أدرك الأحداث التي جرت من دون أن ألتفت إليها. لست رجلًا جديدًا، إنما أنا الطفل الذي شاهد أمه تُقتل أمامه، تُقتل لأنها أنجبتني، تُقتل لأنها منحتني الوجود، أنا قاتل ويتيم في نفس الوقت. قاتل رغم أني لم أقتل، قاتل لأني كنت سببًا، كما كنت سببًا في قتل ليلى ورامز وهند، كنت سببًا لأني وعدتهم باللقاء في المكان الذي شهد قتلهم، قتلهم برصاصات اخترقت عيونهم وجباههم، ولأني قاتل بقيت على وجه الحياة، كأي قاتل يجب أن يبقى ليشاهد ضحاياه. أرى كل ذلك الآن، أراه بعين ماما اليسرى، أراه بعد أن استطاعت رصاصة أن تزيل عيني العمياء لتنكشف من ورائها العين البصيرة.

98 - أنزل إلى الشارع كصورة خرجت من الفيلم الفوتوغرافي وانتهى تحميضها، أرى شارع مراد مغلقًا تمامًا بتماثيل شمعية ترتدي الزي الموحد، تماثيل تنظر إليّ بتنمُّر كغزالة هربت من الصيد ثم عادت بنفسها إلى الغابة. أتجنب المواجهة وأتجه إلى الكورنيش، لا أحد في الشارع، لا أحد يسير أو يبيع، لا محلات ولا مطاعم مفتوحة، لا المراكب الشراعية تتحرك من الضفة الأخرى ولا الأوتوبيس النهري

يحمل أحدًا إلى الفراغ. وأمامي كوبري الجامعة خالٍ من السيارات والمشاه، خالٍ إلا من تماثيل شمعية تطل بزي موحد وسلاح على الكتف ومسدس في الجنب. متحف حربي، أقول لنفسي. متحف شمع حربي، أقول مرة أخرى كأني أحفظ قبل أن أفقد الذاكرة، أو كأني في حاجة إلى من أقولها له. على أرضية الكورنيش البلاط ثمة دماء لا تزال طازجة، ليس لأنها نُزِفت الآن أو اليوم، بل لأن الدماء دائمًا طازجة، الدماء لا تجف، ولعنتها تطارد سافكيها طوال حياتهم. والسماء غائمة جدًا، أقرب إلى السوداء منها إلى الرمادية، كأنها احتفظت بذكرى البارود، بذكرى القنابل المسيلة للدموع، بذكرى الدموع الكثيرة وخيبة الأمل. بذكرى الدموع الكثيرة عليكِ يا ليلى. أحد التماثيل الشمعية يلتفت إليّ، يتحرك في اتجاهي كأي تمثال شمعي، وحين يقترب مني يقف أمامي ويسألني عن بطاقة الهوية. أومئ له بـ لا، "لا" التي يفهم منها أن ليس معي بطاقة هوية، أو يفهم منها أني بلا هوية، أو يفهم منها أن "لا"، لن أظهر لك بطاقة الهوية، أو "لا" حيث لا أعرف هويتي حتى أبرزها لك، أنت ربما تعرف هويتك لذلك صرتَ ما أنت عليه، أنا لا. ينظر إليّ بقوة، ينظر تحديدًا في عيني اليسرى، وبعيني اليسرى أنظر إليه بقوة، بعيني اليسرى، عين ماما، أميز في وجهه وجه من أطلق الرصاصة على عيني، هو نفسه من قتل ليلى وهند ورامز. يسألني إن كانت سليمة، فأومئ بأني لا أعرف،

إذ كيف سأشرح له أنها لم تكن سليمة وباتت سليمة، أنها كانت عمياء وصارت مبصرة. لا بد أنه فسّر أدائي على أنه عجرفة سلبية، أو ربما ميز هو الآخر العين التي أصابها، ربما ميز حجم الجرح، أو ربما كان معروفًا حينها أن العين المصابة مصابة من أحداث محمد محمود. أقول إنه كان عدائيًا معي لأنه دفعني بيده بقوة هزتني، هزتني حتى كدت أهوي إلى الأرض لولا تعلقت بيده، وحين حاول أن ينفضني عنه تشبثت به حتى توازنت. كان ينظر إليّ بكراهية أبصرتها بعيني اليسرى، وبعيني اليسرى أبصرت يده تتحرك نحو مسدسه. كنت مدهوشًا جدًا من قدرة التمثال على الحركة والعنف، ثم فكرت أن التمثال الشمعي هو الوحيد القادر على الحركة والعنف، ثم أردت أن أختبر إن كان تمثالًا فعلًا.

99 - حينئذ سحبتُ المطواة من جيبي الخلفي، ورشقتُ المطواة في عين الرجل اليسرى، فنزفتْ العين اليسرى عيونًا، عيونًا أعرفها (عيونًا أعرفها لأنها عيون ماما وعيون ليلى ورامز وهند) ومن بينها كانت عيني اليسرى ذاتها. كانت عينه اليسرى تنزف عيونًا أعرفها (عيونًا مضيئة، عيونًا لامعة، عيونًا لا تستسلم للجاذبية الأرضية) كانت تتطاير كأنها أسراب طيور كانت محبوسة في قفص وجاءت اللحظة المناسبة للطيران. حينئذ انتبهتُ إلى أن حدقته اليسرى (وكانت مستديرة كأنها عدسة صناعية) لم تكن إلا قفصًا، وأنا، بضربة من السبابة والإبهام،

فتحتُ هذا القفص حقيقةً، فتحتُ الباب، ثم رأيتُ من بعيد (من بعيد لكني أراهم كأنهم على بُعد أشبار مني) حشودًا بزي موحد يتجهون نحوي، بالشر يقفز من عيونهم، بالقتلى يقفزون من عيونهم، فشرعتُ أركض وأركض وأركض، وكلما ألتفتُّ ورائي رأيت حشود الزي الموحد يطاردونني (وكنت كأني أتطلع إلى نفسي من فوق السماء، فأراني أركض وأراهم يركضون ورائي). ثم وجدتُ نفسي عند بيتي (بناية من خمسة طوابق ولها باب حديدي من ضلفتين) فتحتُ باب البناية الصغيرة ودخلت. حينها انتبهتُ (كأني في حلم) إلى أنه بيت مهجور، إلى أن السلم مغبّر، إلى أن درجات السلم خالية، خالية من أي حياة إلا من آثار أقدامي ذاتها. وبجهد وصلتُ إلى شقتي، مررت بالصالة وكان التلفزيون لا يزال مفتوحًا ويعرض تاريخ عائلتي، تاريخي. ثم دخلتُ غرفة مكتبة ماما، وفتحت الصندوق الكرتوني. وحينئذ شرعتُ في قراءة كتاب "ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور".

100 - أثناء ذلك كنت أرهف السمع لأتنصت على الجيران لعلي أسمع صوتًا، لكني لم أسمع أي صوت، كأنهم ماتوا في غفلة مني. ومن وراء نافذتي الزجاجية، سمعتُ ضجيج خطوات، فلما تطلعتُ من النافذة، رأيتُ التماثيل الشمعية تمشّط الشارع، لا بد أنها تبحث عني. أطلق تمثال رصاصًا في الهواء، عدة طلقات كانت مزعجة، لكنه

لم يجد أي رد فعل من الجيران، ولا واحد فيهم فتح شرفته ليطل، ولا واحد حرّكه الفضول.

101 - اضطجعت على الكنبة بجسد غارق في العرق، وبرئتين على وشك الانفجار. كان التلفزيون يعرض أهل المدينة وقد انتهوا من تشييد بيوتها، فبدت جميلة في تنسيق شوارعها ورحابتها، وكان الميدان مبهرًا بحديقته الخضراء وتماثيل السيقان. ثم سرعان ما فتحوا متاجرهم، ثم سرعان ما صنعوا الجداول وحرثوا الأرض وزرعوها، ثم سرعان ما فتحوا ورشهم وبدؤوا في صناعتهم اليدوية. وحينها انتبهت إلى الشبه الكبير بين المدينة التي شيّدوها وبين القاهرة. نفس تقسيمة الشوارع وشكل الميدان، نفس النهر الذي يقسمها إلى نصفين. نفس البنايات القديمة التي تظهر في الصور القديمة، ومنها صور في ألبومات بابا نفسه، ونفس الطراز المعماري الذي انطلق من البدائية واستخدم مواد الطبيعة سهل الحصول عليها. الشوارع الجانبية الضيقة، الممرات، والشوارع الرئيسية الواسعة، تفكير المعماري في حرارة الصيف ومحاولة تضييق الشوارع والمساحات بين البيوت حتى لا تدخل الشمس. وعلى الضفة الأخرى من النهر، حيث يقع الآن شارع مراد، حيث أعيش أنا، أقام أهل المدينة بيوتًا أخرى تمتد حتى الروضة، حيث يضيق النهر ويمكن العبور فوق ألواح خشبية.

102 - غفوت قليلًا ورأيت ليلى، رأيتها بعينين لامعتين، عينين بلون الشاي

الأحمر، عينين جميلتين فوق المعتاد، عينين تشبهان عينيّ طفولتها، وكانت تضحك ضحكتها المعتادة، بوضع يد على فمها وانحناءة رأس قليلة، فتبدو نظرتها أكثر جاذبية، جاذبية فعلية بقوانين الجاذبية التي يسحب فيها الأدنى الأعلى، بقوة. فلا يستطيع الهروب. بدأ الحلم في شارع ضيق بالقرب من بيتي، كنا جالسين على الرصيف، كنت صغيرًا، نفس شكلي وأنا طفل، وكانت تنظر إليّ بهذه النظرة الضاحكة. قلت لها لا أريد أن أخرج من البيت، كلما خرجت من البيت أشعر بغربة، كأني في أرض لا أعرفها، كأني وسط أناس لا أعرفهم. بعد أن ضحكت هذه الضحكة قالت لا تستعجل، ستصل، قريبًا ستصل. حينها لم أفهم إلى أين سأصل. ثم فجأة وجدتُني أنزل سلالم كثيرة تحت الأرض، وأسير في قبو هائل، في ممرات لا نهائية، ممرات متشعبة إلى ممرات أصغر، وبالممرات نوافذ وشرفات، وبالممرات أبواب صغيرة، وبالممرات رؤوس تماثيل، رؤوس تماثيل تشبه الصور المعلقة في صالة بيتي وممراته. قالت ليلى هذا أبو العلاء المعري، وهذا دانتي، وهذا بورخس، وهذا طه حسين. قالت وهذا لسان الدين بن الخطيب، ثم قالت يا أحمد، انظر، هذا لسان الدين بن الخطيب، هذا جدك، إنه جد أمك، إنه جد أم أمك. وأومأ أبو العلاء برأسه موافقًا. ثم اصطحبني أنا وليلى إلى ممر ضيق، وأشار بسبابته أن أنظر، فنظرت. رأيتني جالسًا في ركن يشبه غرفة بثلاثة جدران، كنت جالسًا إلى مكتب

صغير، أمسك بقلم وأمامي أوراق. حين اقتربتُ برأسي، قرأت عنوان الصفحة الأولى: "**كتاب الأحلام**". حين صحوتُ، فهمتُ الرسالة، وشرعتُ في كتابة الصفحة الأولى من "**كتاب الأحلام**".

103 - ثم من خلف النافذة الزجاجية سمعت ضجيجًا لأناشيد وطنية، وحين نهضتُ رأيت مئات التماثيل الشمعية متراصة في الشارع، متراصة ومتحفزة. رأيت في عيونها البحث عني، رأيت على أكتافها موتي. لم أشعر بالخوف ولم أضطرب. تجاهلتهم كأنهم لم يكونوا موجودين يومًا، وجلست أمام التلفزيون أشاهد الفيلم الذي أهدتنيه ماما.

104 - يبـدو أن أحداثًا كثيرةً مرت، إذ حدثت بعض التغيرات في المدينة. المتاجـر والصناعات اليدوية، حركة النـاس في الشـارع والبيوت، التحيات والسمر، كل شيء نعم على حاله، لكن ثمة مجموعة تسير بزي موحد، تنتقل وتراقب الأسواق وتسير بشكل منتظم بالشوارع، كانت قد ظهرت. يعاملون الناس بود، ويقتربون منهم كأهل. هل حدثت ثمة مشـاجرات بين أهل المدينـة اضطرتهم إلى تعيين أفراد منهم لحفظ النظام واسـتقرار الأمن؟ هذا ما سيُقال بالتأكيد لكني لم أشهده. أم أن مجموعة من الكسالى والحمقى، ممن لا يجيدون حرفة ولا يودون تعلمها، اتفقت على هذا الشكل العصابي لكسب العيش وفرض السلطة بأقل مجهود ممكن؟

105 - أهل المدينة، بينهم وبين أنفسهم، يقولون الافتراضية الثانية. لم يطلب أهل المدينة من أحد فض المشاجرات ولا السهر على الأمن. المدينة ليست يوتوبيا بالطبع، لكن كل فرد كان ينتمي إلى الجماعة، وكل جماعة كانت تنتصر للجماعة الأكبر، وللحفاظ على حياة فرد، كان على جميع الأفراد العمل على ذلك. لا أقول ذلك، ذلك ما يقوله أهل المدينة الآن، في المشاهد التي تُعرض أمامي. المدينة ليست يوتوبيا، ثمة من يخطئ ومن يعتدي، النفس البشرية خطاءة، لكن أهل المدينة كانوا يجتمعون على المخطئ، يردون المظالم بأنفسهم، لا يمكن أن يروا معتديًا إلا ويقفون ضده، لا يمكن أن يروا ضعيفًا إلا ونصروه. الكل يعمل، المرأة إلى جانب الرجل، وكانت الحياة تسير. لكن هؤلاء لم يرغبوا في أن تسير هكذا، يقول أحد التجار مشيرًا إلى مجموعة الزي الموحد.

106 - ثم اختارت مجموعة الزي الموحد، بين ليلة وصباح، رئيسًا لها. وفي ساعات الصباح الأولى، نادى المنادي أن اجتمعوا يا أهل المدينة. فلما اجتمعوا قال إن مدينة مثل مدينتنا تحتاج إلى نظام وأمن، يجب أن نضاهي المدن الأخرى، وأن نختار من بيننا من يمثلنا. حينئذ اختاروا رئيسًا لهم سموه ملكًا، ومساعدين له سموهم وزراء ومستشارين، واختاروا رئيسًا للأمن يكون مسؤولًا عن العساكر سموه وزير البطش، وطالبوا أهل المدينة بأن يتطوع الشباب منهم ليكونوا عينًا

ساهرة على حراسة أهاليهم وحمايتهم من المجرمين (الذين لم يكونوا موجودين أصلًا) ومن أخطار المدن المجاورة (التي كانت تعيش في سلام). وحينئذ قال كبير مجموعة الزي الموحد إن هذه المدينة من اليوم ستصير مملكة، وخلال أيام سنملي على مسامعكم ما سنسميه قانونًا للملكة، قانونًا نستمده من أخلاق المملكة وطباع أهلها، ننتصر فيه للفقير في مواجهة الغني (مع أنه لم يكن ثمة فقير ولا ثمة غني)، سنقتص فيه من القاتل من أجل المقتول (مع أنه لم يكن ثمة قاتل ولا مقتول)، سننظم حياتنا، سنكون أفضل، سنكون أكثر سعادة، أعدكم بذلك، أعدكم. وختم خطبته على رنين تصفيقات حادة وتصفير.

107 - المشهد التالي كان كالتالي: فوق تبّة عالية، يقف الملك الجديد برفقة حراس ووزراء ومستشارين، يحدّث أهل المدينة التي ستغدو مملكة أن يشيدوا له قصرًا، وحول القصر بيوتًا لحاشيته، أن يفعلوا ذلك يدًا بيد مع الحراس والجنود المتطوعين. في هذا الركن من المملكة، يا أيها السادة، سندير المملكة، سنصنع مخازن الغلال وديوان القضاء والمظالم، إذ بدايةً من الغد سنمنحكم الحبوب لتزرعوا، وحين تحصدون سنجمع كل الغلات في مخازن ونوزعها عليكم، ومثل ممالك أخرى سنصك عملة لتشتروا بها وتبيعوا. سنخرجكم من حياتكم البدائية لنؤسس نظامًا، وفي النظام الجديد من يعمل يأكل، ومن يعمل يدفع الضرائب، ومن يعمل نضمن له الحياة، ومن لا يعمل لا مكان له

بيننا. سنشيد السجون لمن يتمرد، سنطبق الأحكام على من يخالف، ونحن، ملك المملكة والوزراء والحراس، من سيحافظ على القانون. هذا هو عملنا.

108 - وفي مشاهد متعاقبة، شُيّد القصر وبيوت الوزراء وثكنات تدريب الجنود والحراس. وسريعًا ما ارتدوا الزي الموحد وحملوا سلاحًا وركبوا الخيول. وعمل أهل المملكة، راحوا إلى أراضيهم وزرعوا وحصدوا، وراح الصيادون يرمون شباكهم في النهر واصطادوا أسماكًا. والصّناع لم يتأخروا عن ورشهم وحرفهم اليدوية. لكن ذات يوم قرر الملك أن كل أراضي أهل المملكة ليست إلا أرض المملكة، ولا أحد منهم يملك شيئًا. حينئذ أُجبِروا على دفع إيجار بيوتهم وأراضيهم إلى الحراس، وبعد أن كان كل شيء لهم غدوا بلا شيء يذكر. وبدأ أهل المملكة يشعرون بالجوع، إذ ما يزرعونه ويحصدونه يخزّنه الحراس في مخازن الغلال، وما يصطادونه من النهر يسلمونه إلى الحراس، وما يبيعون به من صناعة أيديهم يستولي عليه الحراس. ثم يقوم الحراس بتوزيع الفتات عليهم. حينئذ اقترح أحد الوزراء على الملك أن في ذلك جهدًا كبيرًا على الحراس، فلماذا لا يترك المزارعون يزرعون ويحصدون ويبيعون، ثم تحصد المملكة منهم الجباية، فيحصلون بذلك على كل شيء من دون جهد يُبذل. حينئذ أصدر الملك فرمانًا بالحصول على نصف الحصاد وفرض الجباية.

وكانت الجباية تزداد شهرًا بعد شهر. ثم مات الملك وجاء ملك آخر، ومات الملك الآخر وجاء ملك ثالث، واستمرت الجباية في الارتفاع، والجوع في التنامي. ثم جاء ملك أعرج كان أشد جبروتًا من سابقيه.

109 - وذات يوم اشتكت امرأة إلى زوجها أنها لا تجد ما تطبخه لهم، ثم اشتكى الرجل إلى جاره أنهم لا يجدون ما يطبخونه، ثم اشتكى الجار، أثناء توجهه إلى الأرض ليحرثها، إلى جار ثالث أنهم لا يجدون ما يطبخونه. وسرعان ما اختفت الطيور من المملكة بعد أن ظهر لصوص يسرقون الدجاج والبط والأوز، واختفت المواشي بعد أن أكلها أهل المملكة وانتهت تجارتها. لم يتبق لهم إلا الأسماك، لكن الحراس كانوا يقفون على الضفاف، يسمحون لناس بالصيد ثم بعد الصيد يحصدون منهم الأسماك. ثم انطلقت أصوات متمردة، لا تبغي شيئًا إلا قوت يومها. فأمر الملك الأعرج بالقبض عليهم، وأصدر فرمانًا بقتل من يتمرد أو يتكلم بكلمة واحدة ضد الملك أو الوزراء، وعيّن من بين أهل المملكة بصاصين يشون بجيرانهم إن تكلموا. ثم أصدر الملك فرمانًا بألا يأكلوا الأسماك، ثم أصدر فرمانًا بألا يخرجوا بعد غروب الشمس. ورغم أن أهل المملكة أطاعوا، إذ لم يكن بوسعهم مواجهة الحراس بأسلحتهم وقوتهم، أو هكذا ظنوا، إلا أن الملك، ذات صباح لا يُنسى، أصدر فرمانًا ببتر سيقان أهل المملكة، حينها قال:

حتى تكونوا عُرْجًا مثلي. لمزيد من النفاق، أصر الوزراء أن يبدؤوا بأنفسهم، إذ كيف سيكونون بساقين ومليكهم بساق واحدة.

110 - ثم بدأت مذبحة بتر السيقان، ثم توقفت إذ لم يعرفوا أين يدفنونها. فأمر الملك بحفر قبور على مسافات عميقة في الأرض، فصنع أهل المملكة والحراس قبورًا في شكل ممرات، وصنعوا في الجدران مشكاوات بمقاس سيقان بشرية. ثم واصلوا بتر السيقان، بترها ولفّها في فردة سروال، ثم خطر لهم تلبيسها فردة نعل، ثم النزول بها إلى الممرات ووضعها في المشكاوات وتغطيتها بالتراب. أثناء ذلك كانوا يروحون إلى زرع الأرض وحرثها بساق واحدة، حينئذ كانوا يصطادون الأسماك بساق واحدة، وكانوا يفتحون ورشهم بساق واحدة. لكن الملك لم يشعر بالرضا. الكاميرا تتركز الآن على سيدة عجوز طاعنة في السن، تجلس تحت شجرة توت هائلة، وكانت تحكي: هكذا يا أولادي انتهت المملكة الأولى بأن خرجت السيقان من القبو لتنتقم من بترها المباغت، وهكذا قتلت كل أهل المملكة من أناس وحراس وملك ووزراء ومستشارين، قتلت الرجال والنساء، ولم ترحم إلا الأطفال، والأطفال كانوا أجدادنا، فحملتهم السيقان إلى أرض بعيدة، وتركتهم هناك ينمون ويكبرون بمفردهم، حتى عادوا إلى هنا وشيدوا المملكة من جديد. ومن جديد بدؤوا. ومن جديد ظهر أصحاب الزي الموحد، وهم من بيننا وليسوا من أرض أخرى،

ليفرضوا سلطتهم. ففرضوها فانظروا ما طالنا: لقد قتلوا وظلموا وسجنوا وخطفوا أبناءنا، ولّما كان الشيخ شوكة في ظهورهم ومدوّنًا لما اقترفوه من جرائم، حاكموه بفقأ عينه اليسرى. ثم ساقوا الشيخ إلى سجن، ثم حاولوا قتله فلم يُقتل، ظنوا أنهم قتلوه لكنه لم يُقتل. ثم ظهر ثلاثة من الحراس، كانوا حراسه هو ذاته حين كان قاضيًا، فساقوه إلى طرف المملكة، وهناك أودعوه في القبو، في القبو الذي كان من قبل أرضًا للسيقان المبتورة.

111 - الكاميرا الآن تتسلط على الشيخ برفقة الثلاثة حراس. الشيخ عاريًا يسير، الشيخ ينظر إلى الحراس نظرات لوم وتوبيخ ظانًّا أنهم خطفوه ولا يعرف إلى أين يقودونه. ربما يفكر الشيخ في أنهم من حاولوا قتله لكنه مخطئ. ربما يظن الشيخ أنهم يريدون دفنه، لكنه مخطئ. نظرات عين الشيخ تقول مئات الأسئلة بلا جواب، والحراس الثلاثة صامتون، ماذا يمكن أن يقول الحراس؟ كيف يمكن أن يدافعوا عن أنفسهم؟ لقد تخاذلوا حين تركوهم يفقؤون عينه، لقد تخاذلوا حين عجزوا عن الدفاع عنه حين ساقوه إلى السجن، لقد تأخروا عن إنقاذه من يد السفلة الذين حاولوا قتله. فماذا سيقولون له الآن؟ نحن من نحاول إنقاذك بحملك إلى القبو؟ نحن أصحاب فضل عليك فلا تلم ولا توبّخ؟ الحراس الثلاثة بعد أن عادوا إلى المملكة، وكان السلطان قد اطّلع على أنهم أنقذوا الشيخ من السجن والموت، عوقبوا

بأن يسيروا عرايا وحفاة حتى نهاية حياتهم، ليكون في ذلك ذل لهم، يتجرعونه في كل صباح ومساء. كل ذلك كنت أشاهده. كل ذلك كان يتحرك أمامي في شاشة التلفزيون. ثم اختار الفيلم خيطًا واحدًا وتطور فيه. حينها رأيت ابن الشيخ يتزوج وينجب فتاة، ورأيت الفتاة تتزوج وتنجب فتاة. وسالت مشاهد الزواج والإنجاب حتى رأيت مشهد ميلاد ماما، ماما الحقيقية. ثم رأيت الصورة الفوتوغرافية التي تجمع أبًا وأمًا وابنًا وبنتين، واحدة بيضاء وطويلة وبشعر ناعم، وواحدة (هي ماما الحقيقية) خمرية وطويلة وبشعر كيرلي. وفي نفس الصور، كان بابا هناك، مشرئبًا برأسه من وراء الفتاة الطويلة، كأي متطفل على صورة لا تخصه، كأي وحيد يبحث عن عائلة ينضم إليها. كأي مصور يصنع صور الآخرين، وحين يموت لا يعثرون له على صورة وحيدة. كأي مصور عاش حياته في غرفة التحميض، وحين مات اكتملت صورته. أنا إذن أسعد من بابا، أسعد منه لأن صورتي تحمضّت وظهرت حين فقدتُ عيني اليسرى، حين انكشفت عين ماما الحقيقية من وراء ستار عيني التي كانت عمياء، كانت عمياء فغدت بصيرة. وبقراءة مشاهد الفيلم واستكمال ما بين سطوره، يمكن أن أقول إن سلالة جدي الشيخ ظلت تتوارث كتاب "ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور"، حتى وصل إلى مكتبتي. ورغم أني قضيت في هذا البيت أكثر من ثلاثة وثلاثين عامًا، هو سني حين

بدأت في كتابة "كتاب الأحلام"، وهو سني عين فقدت (أو ربحتُ) عيني اليسرى، إلا أني لم أر أبدًا هذا الكتاب إلا حين أبصرتُ بالعين اليسرى ذاتها. هذه العين المبصرة هي من قادتني إلى غرفة المكتب بشقتي، بشقتي في شارع مراد، وهناك عثرت عليه في صندوق ما كان أبدًا ليخطر ببالي، لولا أن عيني اليسرى، عين ماما المبصرة، من قادتني إلى هناك أيضًا.

112 - الآن أودّع التلفزيون الذي لا يزال مفتوحًا، ومنه تتطلع ماما الحقيقية، تتطلع بابتسامة عريضة لم أرها من قبل على وجهها الجميل. أراها تتطلع إليّ بعينين سليمتين ولامعتين، عينين تشبهان عين ليلى، ليلى حبيبتي، ليلى التي تشارك ماما في اسمها، ليلى التي تشارك ماما في مصيرها، كما تشاركها في حبي لها.

113 - لكني أنتبه إلى أن ابتسامة ماما ليست ابتسامة وداع، إنما ابتسامة لقاء. ابتسامة اللقاء باب مفتوح على الحياة، ابتسامة الوداع باب مفتوح على الموت.

114 - كنت أقول إني أودّع التلفزيون وأتجه إلى الممر، ومنه إلى غرفة المكتبة، لكني في غرفة المكتبة رفعت الصندوق الكرتوني الذي كان يضم كتاب جدي الشيخ. وتحته وجدت سلمًا لا أعرف من وضعه لي. فنزلتُ.

115

115 - كان الشيخ يتجول بالممر الطويل بجوار أبو العلاء وبورخس وطه. كانوا يرون الشرفات والنوافذ مضيئة. كانوا يرون المشكاوات المحفورة في جدران الممر الطويل مضيئة. كانوا يرون السقف مضيئًا. وفي طريقهم قابلوا ليلى وهند ورامز، وكانت نظراتهم لامعة، كأنهم سيلتقون بحبيب. وكانت ثمة امرأة تسير هناك بمفردها، امرأة جميلة بشكل لافت، امرأة خمرية وطويلة وبشعر أسود مموج. حين نظر إليها الشيخ عرف أنها حفيدته، وحين التقت عيناها بعينيه عرفتْ أنه جدها.

116

116 - تجولوا جميعًا في كل ممرات القبو، خرجوا من الممرات إلى ضفاف نهر، وهناك قابل الشيخ زوجته الأولى وقابل ابنه. ساروا ساعات وساعات، ثم عادوا إلى غرفة الشيخ في القبو وجلسوا أمام الجدار المضيء.

117

117 - كان الجدار المضيء يعرض المملكة بشوارعها الخالية إلا من الحراس الذين يتجولون الشوارع وقد مسّهم الجنون. الحراس ومن خلفهم الملك والوزراء والمستشارون وقد مسّهم الجنون. تركوا القصور والبيوت الفخمة ونزلوا يتجولون حيث بيوت أهل المملكة العوام، في جنون. أمر الملك الحراس بأن ينادوا أهل المملكة ليخرجوا من بيوتهم، فلم يخرجوا. حاول الحراس كسر الأبواب والنوافذ من دون جدوى، حاولوا تسلق الأسطح فوجدوها موصدة. أثناء ذلك، كان أهل المملكة يتجولون تحت الأرض، يسيرون بممر طويل ويصلون إلى غرفة القبو القابع فيه الشيخ يشاهد من خلال جدار مضيء ما يجرى في المملكة. امتلأ الممر على آخره.

118

118 - غدا القبو مسكونًا في كل ممراته وغرفه، في كل بيوته وشرفاته، وبينهم كان يتحرك الشيخ وأبو العلاء وبورخس وطه، يتحدثون معهم لساعات طويلة، ويقضون الليل في تأمل الحياة كمبصرين اكتشفوا، بعد سنوات طويلة من حياتهم، كم كانوا عميانًا من قبل. وجلسوا يقرؤون بالتبادل في "**كتاب الأحلام**":

119 - حينئذ نزلتُ عبر سلم لا أعرف من وضعه لي، أعانق كتابَ **"ما لم يرد ذكره في قصة القبو المسحور"**، كأنه تميمة لا يمكن التخلي عنها، كأنه طريق يجب أن أسير فيها. كأنه قِبلة يجب أن أصل إليها. نزلتُ ألف سلمة حتى وصلتُ إلى ممر طويل، ممر وجدته حافلًا بكل أهل المدينة، بكل جيراني وأصدقائي ومعارفي، كلهم كانوا هناك، كلهم هجروا المدينة في الوقت المناسب، كلهم وصلوا إلى هنا لأنهم صدّقوا الأسطورة القديمة عن القبو الذي يمر من تحت المدينة، كلهم صدّقوا أسطورة السيقان المبتورة التي خرجت ودمرت كل شيء. كلهم صدّقوها واستحضروها حين احتاجوا إليها، وكل الأجداد وآباء الأجداد بدؤوا يحكونها من جديد لأبنائهم وأحفادهم. وبينما كنت أسير في الزحام، أسمع الأحاديث وأبادل التحية، رأيت ماما، ماما الحقيقية، كانت تنتظرني في شرفة بيت، كانت تنتظرني فلما رأتني مدت يديها إليّ ورفعتني. عانقتني وظلت تنظر في عينيّ، ظلت تنظر إلى عيني اليسرى تحديدًا، وقبّلتْها. ثم نزلت معها لنتنزه في الممرات، فعثرتُ في ركن قَصيّ على ليلى وهند ورامز. فعانقت ليلى إلى حد أني نسيت العالم من حولي.

119

أمام الجدار المضيء، شاهد الشيخ وأبو العلاء وبورخس وطه وأهل المملكة الحراسَ والجنودَ وهم يطوّقون الميدان، وبآلات حادة يحاولون تقويض الهرم الرمادي، يحاولون الوصول إلى العين التي ترصّع قمته.

120

في هذه اللحظة انصهر أهل المدينة في أهل المملكة. في هذه اللحظة التقى أحمد وليلى وهند ورامز بالشيخ وأبو العلاء وبورخس. في هذه اللحظة انضم إليهم دانتي وابن رشد وطه حسين. في هذه اللحظة أضاءت المشكاوات وخرجت منها السيقان المبتورة، خرجتْ وفتحتْ لهم الطريق. خرجتْ وتسلّقتْ السلالم وهم يتبّعونها.

121

120 و121 ـ مثل أسراب من الطير، مثل أسراب من الجراد، خرج أهل المملكة وأهل المدينة بصحبة السيقان المبتورة من كل مكان بالقبو، خرجوا وطوّقوا المدينة بأسرها. خرجوا وهاجموا القصور وقوّضوها، خرجوا فلم يبق لا ملك ولا وزير ولا مستشار ولا حارس ولا جندي، خرجوا وتخلصوا من كل التماثيل الشمعية التي كانت تسيطر على الحياة، خرجوا وقوّضوا المدينة نفسها فلم يبق منها شيء إلا أطلال وخرائب. ومن بين الأطلال، كان الميدان يبدو ناتئًا، كان مجيدًا لا يمسه سوء. ورغم الدمار الذي طال المملكة/ المدينة، إلا أن ثمة ابتسامة كانت مرسومة على الوجوه، ليس لأنهم أحدثوا خرابًا، إنما لأنهم كشفوه، لأنهم أزالوا عنه الغطاء، لأنهم أزالوا الوهم والآن يواجهون الحقيقة عارية، كما أزالوا عماهم ذاته.

122

122 - حينئذ اختاروا أن يبدؤوا من جديد، وأن تكون بدايتهم نحت تماثيل لسيقان مبتورة ونصبها في وسط الميدان. تماثيل لسيقان بشرية، بالحجم الطبيعي واللون الطبيعي. تماثيل لسيقان نابتة من الهرم الرمادي، تماثيل لسيقان تطوِّق العين التي تزين الهرم الرمادي وتتطلع منه إلى المدينة. وحول الميدان يشيّدون بيوتًا من جديد، ومن شرفات البيوت يتطلعون إلى الميدان ليتذكروا ما لا يجب أن ينسوه:

تحت المدينة قبو، في القبو مشكاوات، وفي المشكاوات سيقان تعرف وحدها مواعيد الخروج.

عن الكاتب

أحمد عبد اللطيف (القاهرة، 1978).

روائي ومترجم وصحفي مصري، صدر له خمس روايات والعديد من الكتب المترجمة.

فازت روايته الأولى "صانع المفاتيح" بجائزة الدولة التشجيعية عام 2011. وفازت روايته الثالثة "كتاب النحات" بالمركز الأولى في جائزة ساويرس الثقافية عام 2015.

وصلت روايته الخامسة "حصن التراب – حكاية عائلة موريسكية" إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية عام 2018، وتُرجمت إلى اللغة الإسبانية عن دار Relee Ediciones عام 2019.

دُرِست أعماله بالمعهد العالي للسينما والمسرح بمصر كما دُرِّست بجامعة كومبلوتنسي بمدريد وجامعة تشارلز بالتشيك كنماذج للكتابة العربية الجديدة.

الإميل: ahmedxlatif@yahoo.com